الفصل الثاني

النهروان - منشؤه - تطوره

١ - مجرى النهر

عرضنا في الفصل الأول صورة مجملة لمدينة سامراء القديمة والتطورات التي اعتورت مراحل انشائها ، وليتسنى لنا الوقوف على نظام الري القديم في المدينة علينا أن نستعرض قبل كل شيء الأدوار التي مرّت على مشروع النهروان القديم، وهو المشروع الذي يعدّ العمود الفقري لمنظومات الري القديم في منطقة سامراء .

اما الآثار التي نشاهدها اليوم لهذا النهر التاريخي العظيم على طول الضفة الشرقية لنهر دجلة بين الدور (دور تكريت) والكوت لمسافة ثلثمائة كيلومتر تقريباً فتعود الى عدة عصور واغله في القدم

وقد كان هذا الجدول اعظم وأوسع جدول عرفه العالم القديم ، ولا شك انه يعد من أطول وأكبر الجداول في العالم حتى في عصرنا هذا . وإذا لاحظنا أن عرضه يبلغ في بعض أقسامه حد المائة والعشرين متراً وعمقه في بعض الأقسام يبلغ أكثر من عشرة امتار اتضحت لنا أهمية هذا المشروع وعظمته . فلا نعجب إذن اذا قال ويلكوكس « ان النهروان كان يؤثر في مجري دجلة تأثيراً محسوساً في موسم الفيضان عندما كان يسحب اقصى حد استيعابه للمياه ». وقد أضاف الى ذلك قوله «لا يوجد أي جدول سواء أكان في مصر أو في الهند يمكن ان يضاهي النهروان في حجمه ، فان أوسع جدول في مصر لا يتجاوز عرضه الستين متراً وعمقه العشرة امتار » .

٢ - صدر النهروان

للنهروان ثلاثة مداخل رئيسية تتفرع من الضفة اليسرى لنهر دجلة في منطقة سامراء اثنان منها يتفرعان من جنوب سامراء ، أما المدخل الثالث فيتفرع من شماليها . ويؤلف المدخلان الجنوبيان المجرى الرئيسي الاصلي للنهروان وقد انشئا على حسب الطريقة القديمة المتبعة في ذلك الوقت ، أي على أساس انشاء مدخلين للجدول أحدهما خاص بموسم الفيضان يستعمل عند ارتفاع مناسيب المياه في النهر والثاني خاص بموسم الصيهود (موسم قلة المياه) يستعمل عند هبوط مستوى النهر .

ومن المفيد ان نذكر في هذا الصدد ان الاقدمين اعتادوا أن يضعوا تصاميم جداولهم من دون نواظم في الصدور ، إلا انهم كانوا يعوضون عن ذلك بانشاء مدخلين لكل جدول يفتحونه ، فيستخدم اعلاهما في الموسم الصيفي ، فلا يفتح إلا بعد ان تغدو المياه رائقة وخالية من الطمي ، أما المدخل الذي يقع عادة على بعد عدة كيلومترات اسفل المدخل الأول فينشأ قعره بمنسوب عال بحيث لا تجري فيه المياه الا بعد ارتفاع مستوى مياه النهر في موسم الفيضان، أي عندما تكون المياه مشبعة بالمواد الغرينية . ومن فوائد هذه الطريقة انها تؤمن المحافظة على المدخل الصيفي من تراكم ترسبات الطمي فيه ، كما انها تحقق الاستفادة من موقع المدخل الصيفي الذي تكون امامه مياه النهر في أعلى منسوب يمكن الحصول عليه في موسم الصيهود عندما تشح المياه ويهبط مستواها في النهر . وأخيراً ان هذه الطريقة تسهّل ضبط مياه الفيضان في المدخل الاسفل ذي القعر المرتفع حيث يكون مستوى المياه في النهر أمام هذا المدخل أوطأ منه أمام المدخل الاعلى[1].

---

(١) راجع الجزء الثاني من كتابنا « وادي الفرات » حيث يجد القارىء في ص ١٢٤ منه بحثاً عن مشكلة الطمي وجداول الري القديمة .

وعلى هـذا الأساس انشيء مدخلان للنهروان ، وهما الواقعان في جنوبي سامراء ، فكان مدخل المجرى الشمالي المعروف اليوم باسم « نهر القائم » أو « نهر الارفاف » يستعمل أيام شحة المياه ، على حين ان مدخل المجرى الواقع جنوبي « نهر القائم » ، وقد رأينا ان نطلق عليه اسم « مجرى الصنم » للاسباب التي ستأتي فيما بعد ، كان يستعمل في موسم الفيضان . ويستدل من تدقيق مناسيب المياه في مجرى دجلة أمام كل من المدخلين المذكورين ان مستوى مياه نهر دجلة كان أمام المدخل الأسفل أوطأ منه أمام المدخل الأعلى بما يقرب من ثلاثة أمتار .

ونلاحظ ان المدخل الأسفل ، الذي كانت تجري فيه مياه الفيضان ، انشيء في اتجاه معاكس لمجرى النهر الرئيسي كما مبين في المخطط التالي (رسم رقم ٤) . ويظهر ان قد كان الغرض من ذلك تقليل كمية الطمي التي تدخل

رسم رقم ٤

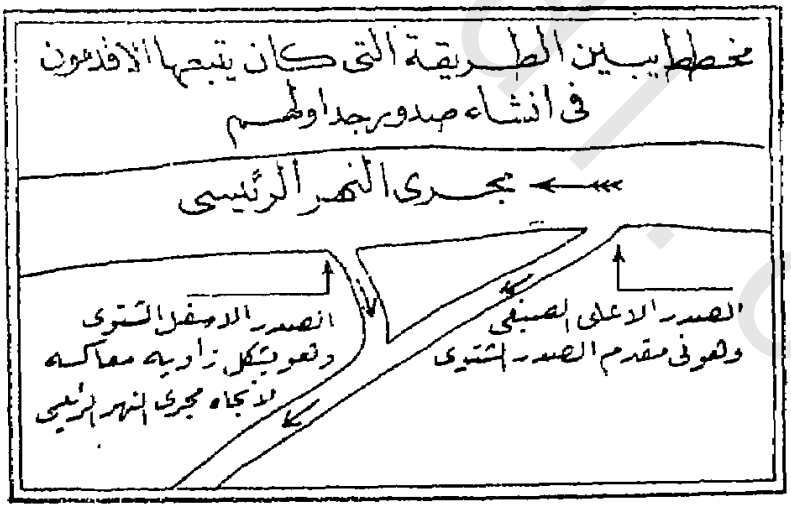

الى الجدول بنتيجة تخفيض سرعة المياه الذي يتجه نحو المدخل ، على اعتبار ان انخفاض سرعة جري المياه يقلل من كمية الطمي التي تحملها هذه المياه الى الجدول .

ومن المهم ذكره في هذا الصدد ان السير ويليم ويلكوكس كان قد اتبع في

وضع تصاميم مشاريعه التي اقترحها على نهر الفرات الطريقتين المذكورتين ، فاقترح إنشاء مداخل مرتفعة خاصة بالفيضان واخرى خاصة بموسم الصيهود في كل الجداول التي وضع تصاميمها على نهر الفرات ، كما انه اقترح إنشاء صدر جدول الحلة معاكساً لمجرى التيار ومواجهاً قناطر الهندية على نفس الطريقة القديمة الآنفة الذكر[١] . ولا شك أن السير ويليم ويلكوكس اقتبس هاتين الطريقتين من القدماء بعد دراسته لمشاريع الري في العراق دراسة دقيقة ، ولا عجب في ذلك فهو الذي كان يقول : « ان العراق في غنى عن تخطيط جديد لشق الترع فان في الآثار الباقية من الدور العباسي كفاية لتنظيم أمر الزراعة والري في العراق» .

٣ ـ نهر القائم ـ مجرى النهروان الصيفي

يتفرع صدر مجرى القائم من نهر دجلة في نقطة تقع على بعد حوالي ١١ كيلومتراً من جنوبي سامراء[٢] عند برج القائم الواقع على الضفة اليمنى من المجرى[٣] (راجع التصوير رقم ٩ ـ برج القائم) ، لذلك يسمى هذا المجرى

(١) حول تفاصيل مقترحاته المذكورة راجع الجزء الثاني من كتابنا « وادي الفرات » ص ١٢٥ ـ ١٢٧ و ص ٣١٣ ـ ٣١٥ وكذلك كتابنا « قناطر الهندية ـ تصميمها تاريخها اهدافها » (بالانكليزية) ص ٥٨ ـ ٦٢ .

(٢) تشير هذه الابعاد الى المسافات التي تمتد على طول نهر دجلة .

(٣) يتكون هذا البرج من بناء مربع الشكل يبلغ طول ضلعه حوالي ستة امتار وارتفاعه عن الأرض المجاورة ١٥ الى ٢٠ متراً ويقع على فم مجرى القائم تماماً وقد سمي في اكثر الخرائط باسم « امام القائم » على حين انه لا يوجد فيه غير آثار منارة قديمة هي أقرب الى شكل النصب التذكاري أو البرج من القبر . ويظهر من الآثار المتبقية ان بناء البرج الداخلي بني بالجص والحصى الخشن ، والارجح ان وجه البناء كان مغلفاً بطبقة من الآجر عليها بعض الكتابة وان هذه الطبقة تخربت أو قلعت منها مادة الآجر التي فيها لاستعمالها في أبنية سامراء . ويلاحظ في الجهة الشرقية من البرج آثار يستدل منها على انه كان في تلك الجهة سلم مدرج يصعد الى قمة البرج .

ويعتقد البعض بان البناء كان نصباً تذكارياً اقيم بمناسبة انشاء الجدول وهي الطريقة المتبعة منذ اقدم العصور حتى الآن عند انشاء الجداول فيدون عادة على النصب

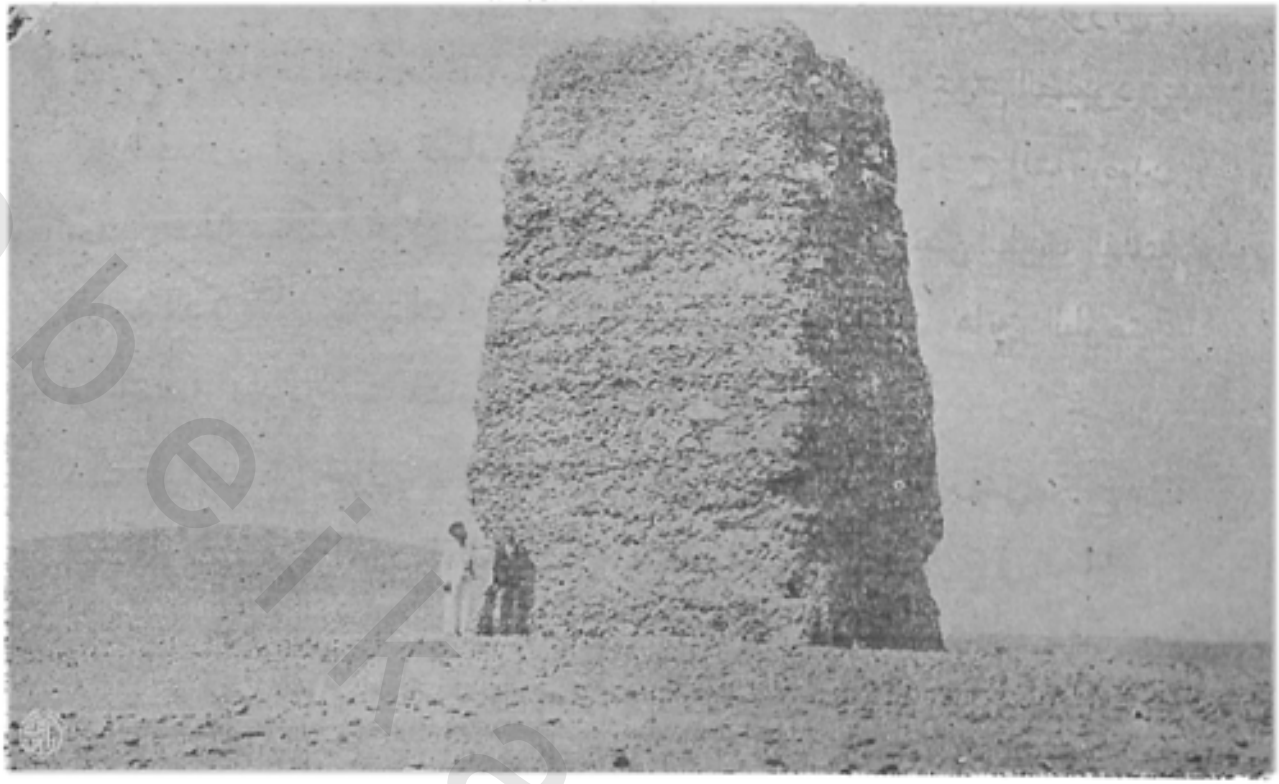

تصوير رقم ٩ – برج القائم

باسم « مجرى القائم » مع ان البعض يسميه باسم « نهر الارفاف » . ويسير مجرى القائم هذا بعد ان يترك حصن القادسية على ضفته اليمنى[1] في الاتجاه الجنوبي الشرقي محاذياً الى نهر دجلة ، فيخترقه نهر العظيم قرب مصب العظيم في دجلة ، ثم يخترقه نهر الخالص قرب مدينة الخالص الحالية ويخترقه نهر ديالى قرب مدينة بعقوبة . وبعد ذلك يجري موازياً للضفة اليسرى لنهر ديالى

= اسم القائم بالمشروع وتاريخ انشاء المشروع وغير ذلك من الامور المتعلقة بالمشروع. وقد اختلف المحققون في أمر تعيين تاريخ هذا البناء فبعضهم، وفي مقدمة هؤلاء المس بيل ، يعتقد بانه أقيم عندما انشيء المشروع ولذلك فهو أقدم من العصر العربي .

والذي نراه هو ان البرج قديم جداً والارجح ان البناء الاصلي يرجع الى العصر الذي انشيء فيه النهروان في الاصل ثم اعيد انشاؤه على عهد الرشيد عندما اعاد الرشيد حفر المجرى نفسه ، ولعل المتوكل أضاف اليه بعض الزخارف أو قام بتقويته . والدليل على هذا ان الحموي يذكر بان القائم « بنية كانت قرب سامراء من أبنية المتوكل » كما ان ابن عبد الحق يؤيد ذلك بقوله ان القائم « ثنية قرب سامراء من أبنية المتوكل » .

(١) حول هذا الحصن راجع البحث التالي الخاص بالقادسية في الفصل الرابع .

الحالي ، وبعد أن يجري في هذا الاتجاه مسافة زهاء ثلاثين كيلومتراً جنوبي بعقوبة يترك نهر ديالى فينحرف نحو الشرق مخترقاً الأراضي الزراعية الواقعة على ضفة نهر دجلة اليسرى حتى ينتهي بالقرب من مدينة الـكوت الحالية ، وبذلك يكون قد قطع مسافة ثلثمائة كيلومتر تقريباً في مجراه هذا . ويستدل مما أورده المؤرخون العرب بان مجرى القائم المذكور هو نفس المجرى الذي عرفه العرب بأسم « القاطول » في اقسامه العليا ، وهو القاطول الذي تؤيد لنا كتاباتهم واشعارهم ان الرشيد أعاد حفره وبنى عليه قصراً ليقيم فيه عندما يخرج للتنزه هناك وقد سمي باسم « نهر أبي الجند »[١] .

٤ ـ نهر الصنم ـ مجرى النهروان الشتوي

اما مدخل النهروان الأسفل (أي المدخل الشتوي) ، وهو المدخل الأخير من الجنوب ، فيتفرع من نهر دجلة في نقطة تقع على بعد ستة كيلومترات تقريباً من جنوبي مدخل مجرى القائم ومن أمام « حصن القادسية » مباشرة[٢]، ويمتد مجرى هذا النهر مسافة حوالي أربعة عشر كيلومتراً يسير فيهـا محاذياً لمجرى دجلة أيضاً ثم يلتقي بمجرى القائم شرقي خان صعاوية وعرب رشيد على مسافة حوالي ثلاثة كيلومترات عنهما . وعلى الرغم من ان مجرى دجلة الحالي قد اكتسح معظم آثار هذا المجرى إلا أنه لا تزال آثار معظم اقسامه بيّنة في جنوبي القادسية حيث يبلغ عرضه هناك حوالي ثلاثين متراً وارتفاع ضفتيه اكثر من اثنى عشر متراً ، ولما كان هذا المجرى هو مجري الفيضان فلا عجب اذا كان أوسع من المجرى الشمالي (مجرى القائم) .

ولا يزال يعرف الموضع الذي يتفرع منه هذا المجرى بالنسبة الى نهر دجلة

---

(١) حول نهر أبي « الجند » المذكور راجع البحث التالي في الفصل الرابع .

(٢) حول « حصن القادسية » المذكور راجع البحث التالي في الفصل الرابع .

بـ « الصنم » حيث لا تزال آثار صدر المجرى وضفافه العالية ماثلة للعيان لمسافة مائتي متر تقريباً وذلك في شمال غربي القادسية بالقرب من معمل الزجاج القديم . ويرجع منشأ هذه التسمية الى عثور الأهلين على صنم فوق الضفة الغربية للمجرى في هذا المكان ، وكان ذلك بطريق الصدفة وحين جرفت مياه السيول النصف الاعلى للصنم من مكانه الذي في أعلى ضفة النهر فحملته الى الوادي المجاور . ولعلّ الصنم المذكور كان قد نصب على فم المجرى في نفس الوقت الذي انشيء فيه النهر جرياً على العادة المألوفة بانشاء مثل هذه النصب التذكارية على فوهات الجداول . ومما يجدر ذكره في هذا الصدد هو أن المكان الذي يقع فيه الصنم المذكور يتفق تماماً مع الموضع الذي يقع فيه البرج القائم على فم المجرى الاعلى (مجرى القائم) .

ولقد ذكر فيليكس جونس، الذي مسح منطقة النهروان قبل مئة سنة تقريباً، أن الدكتور روس الذي زار هذه المنطقة في سنة ١٨٣٤ عثر على النصف الاسفل من هذا الصنم فحمله معه وبقي في حوزته . وقد ذكر الدكتور روس ان الصنم مصنوع من الحجر الاسود على هيئة التماثيل المصرية القديمة مما يدل على انه يرجع الى عهد قديم جداً . وقد وصف الدكتور روس الموضع الذي عثر فيه على النصف الاسفل من الصنم فذكر انه وجد هناك اطلالا لبناء مستطيل من الآجر المفخور المصنوع صنعاً دقيقاً وقد جرف مجرى نهر دجلة نصف هذا البناء . اما الآن فلا يوجد أي أثر للبناء المذكور في هذا الموقع وذلك بنتيجة قلع الاهلين الآجر المتبقي منه .

ولا شك ان موقع مدخلي النهروان المذكورين (مدخلي القائم والصنم) كان موقعاً عسكرياً ستراتيجياً مهماً بالنسبة الى الظروف التي انشيء فيها مشروع النهروان، ونعني بذلك العداء الذي كان مستحكماً بين الرومان والفرس . ولما كان أمر المحافظة على هذين المدخلين وحراستهما من خطر غزو الرومان الذي كان

يهدد المملكة الفارسية من ذلك الجانب من أهم الامور التي كان على رجال الحكم اعارتها اهتمامهم فقد انشأوا حصناً منيعاً بالقرب من نهر دجله في داخل المثلث الذي يتكون في موضع التقاء مجرى القائم بمجرى الصنم لتحقيق حراسة المدخلين المذكورين ومنع وقوعهما بيد الاعداء . ولا تزال آثار هذا الحصن التاريخي باقية حتى الآن وهي تقع بين مجريي القائم والصنم . أما الحصن فيتألف من سور ضخم مثمّن الاطراف مدعم بدعامات ضخمة وهو يعد من أهم آثار منطقة سامراء[١] .

٥ ـ القاطول الاعلى الكسروي

ان ما تقدم يتصل بالمجرى الرئيسي للنهروان الذي يبدأ بمدخليه الشتوي والصيفي في جنوبي سامراء ، اما المجرى ذو المدخل المنفرد الذي يبدأ من شمالي سامراء فكان يعرف باسم القاطول الأعلى الكسروي نسبة الى كسرى أنوشروان الذي أمر بحفره لأرواء الاراضي الواقعة في جنوبي سامراء على ضفتي مجرى النهروان الرئيسي في القسم الأعلى منه ، وهي الاراضي المرتفعة بالنسبة الى مستوى صدر مجرى النهروان المذكور . وأهم ما في هذه الاراضي القسم الواقع بين مجرى النهروان الرئيسي الذي يتفرع من جنوبي سامراء وبين الضفة اليسرى من مجرى دجلة القديم الذي كان يسير آنذاك غربي مدينة بلد الحديثة فيجري غربي مجرى دجلة الحالي ثم يلتقي به شمالي مدينة الكاظمية الحالية[٢]. وقد سمي هذا المجرى بالقاطول الاعلى لتميزه عن القاطول الاسفل ، أي نهر القائم الذي كان يسمى بالقاطول أيضاً في العهد العربي .

ويبدأ صدر القاطول الاعلى الكسروي في الدور (دور تكريت) فيسير

---

(١) راجع البحث الذي يلي في الفصل الرابع (المواد ١١و١٢و١٣)

(٢) راجع البحث التالي الخاص بمجرى دجلة القديم في المادة (١٣) من هذا الفصل

جنوباً على محاذاة الضفة اليسرى لنهر دجلة مسافة نحو ٦٥ كيلومتراً ثم يلتقي بمجرى القائم ، أو القاطول الاسفل، في نقطة تقع على بعد ٣٢ كيلومتراً من فمه . وكان قد انشيء سد غاطس في نهاية القاطول الاعلى هذا لتحويل كل مياهه الصيفية الى الفروع التي تتشعب منه أمام السد (راجع الرسمين ٦ و ٧) (١) . وكانت الجداول التي تتفرع من الضفة الغربية تعبر من فوق مجريي النهروان الرئيسي (مجريي القائم والصنم) على عبارات ضخمة (Aqueducts) ومن ثم تمتد نحو مجرى دجلة القديم (راجع اللوحة رقم ٢) . ومن جملة هذه الجداول الفرع الذي فتح من شمال السد الغاطس لحمل المياه الى « حصن القادسية » . وكان هذا الفرع يقطع الاراضي الواقعة بين القاطول الاعلى والقاطول الاسفل (مجرى القائم) ، وبعد ان يعبر من فوق نهر القائم على عبارة من بناء الآجر يفضي الى داخل الحصن (راجع الرسمين ٨ و١٣) (٢) .

المنشآت الرئيسية والمارة المقامة على النهروان والقاطول الكسروي

أن أهم المنشئات على النهروان هي النواظم والسدود المنشأة على مختلف المواقع من مجراه بغية حجز المياه ورفع مستواها لتحويلها الى الجداول الفرعية التي تتفرع من أمام تلك النواظم والسدود ، وأول بناء من هذا النوع ابتداء من الشمال السد الغاطس (Weir) الواقع في ذنائب القاطول الكسروي عند ملتقاه بمجرى النهروان الرئيسي (مجرى القائم) ، وهو السد الذي سماه المؤرخون العرب باسم « القناطر » ، وهو لا يزال محافظاً على هذه التسمية حتى الآن . وقد انشيء هذا السد من بناء ضخم يقوم على أساس من الآجر ومونة النورة والرماد ، فيمتد سطحه بتسريح منتظم فوق طبقة سميكة من خرسانة الجص

---

(١) راجع البحث التالي الخاص بالقاطول الكسروي

(٢) راجع البحث التالي الخاص بحصن القادسية في الفصل الرابع

والنورة والحصى . ولا يزال قسم السد الذي يقع على محاذاة الجناح الايمن باقياً الى الآن ، وقد تعذر على الاهلين انتزاع الآجر الذي في أسفل طبقة الخرسانة لصعوبة قلع الخرسانة بالآلات اليدوية. وفيما يلي القناطر سد آخر على مجرى النهروان الرئيسي يقع في نقطة تبعد حوالي ٢٥ كيلومتراً من فه . وكان يعرف هذا السد باسم « الشاذروان الاعلى » لتمييزه عن سد آخر يقع في جنوبه ، وكانت تتفرع من أمامه عدة جداول كبيرة أهمها المعروفة اليوم باسم « خشوم الخور » وهذه كانت تروي الاراضي الواقعة بين مجرى ديالى الحالي والضفة اليمنى للنهروان ، وهي المنطقة التي تقع فيها « خفاجي » و « بسمايا » و « المدائن » القديمة (راجع اللوحة رقم ٤) . هذا فيما يختص بالجهة الغربية ، اما فيما يختص بالجهة الشرقية فكانت هناك عدة جداول تتفرع من أمام السد أيضاً لأرواء الاراضي الشرقية وأهمها الجدول الغربي الذي تسمى آثاره اليوم باسم « خيوط الاعوج »[1] .

ونأتي أخيراً الى أهم ماكان على مجرى النهروان من منشئات رئيسية ونعني بذلك السد القائم في القسم الاسفل من المجرى ، وهو السد الذي كان يسميه القدماء باسم « الشاذروان الاسفل » لتمييزه عن « الشاذروان الاعلى » الذي مر ذكره ، ويسميه الاهلون اليوم باسم « القنطرة » . ويقع هذا السد بين مدينة « عبرتا » وبين مدينة « اسكاف بني الجنيد » (المدينتين المهمتين على القسم الاسفل من مجرى النهروان)[2] في نقطة تبعد زها ١٧٧ كيلومتراً عن فه . ويمتاز هذا السد في كونه أضخم السدود التي على مجرى النهروان كما انه يمتاز في تصميمه الذي يشتمل على جدار ضخم يمتد في الجانب الغربي من السد وعلى هويس (ممر للسفن) والى جانب ذلك الجدار . ويستدل من آثار بناء هذا السد التي لا تزال باقية الى الآن انه اجريت ترميمات واضافات فيه في ادوار

---

(١) راجع البحث الذي يلي في الفصلين التاسع والعاشر .

(٢) راجع البحث عنهما في الفصل العاشر .

مختلفة لاختلاف نوع البناء ومادة البناء في مختلف اقسامه . ومما لا شك فيه أن القسم الاكبر من هذه الترميمات والاضافات اجريت خلال العهد العربي . وكان يتفرع من أمام السد جداول واسعة عدة تمتد الى جانبي النهروان لارواء الاراضي السهلة الواقعة في منطقة اسكاف بني الجنيد ، ولا تزال آثار هـذه الجداول وضفافهـا العالية ماثلة للعيان تؤلف تلولاً عالية تستوقف النظر من مسافة بعيدة ، وهي تقع في وسط أراضي الجزيرة الصحراوية ، كما ان بقايا النواظم التي كانت في فوهات هذه الجداول لا تزال تشاهد في مواضعها وهي مكونة من الآجر والنورة في الاساس ومن الآجر والجص في القسم الاعلى من البناء .

اما المنشئات التي كانت على نهر القاطول الكسروي فأهمها الناظم القاطعي الذي انشأه المتوكل هناك وهو يقع في نقطة تبعد نحو ثلاثين كيلومتراً عن فم النهر . وقد أنشيء هذا الناظم لحجز المياه ورفع منسوبها بغية تحويلها الى « نهر نيزك » الذي فتح من امام السد في الضفة الغربية ليروي المنطقة الواقعة بين القاطول الكسروي ونهر القائم[1] ، وهي المنطقة التي انشأ المتوكل فيها حير الحيوانات وبركته المشهورة التي وصفها البحتري وسيأتي البحث عن ذلك في الفصول الآتية .

وكان عدا السدود الرئيسية المذكورة جسوراً مهمة على مجرى النهروان تقع على الطرق الرئيسية ، فأهم هذه الجسور من الناحية الستراتيجية الجسر الذي انشيء في مدينة النهروان الواقعة على بعد زها ١٢٠ كيلومتراً من فم مجرى النهروان الذي في القائم وعلى بعد نحو عشرين كيلومتراً من شمالي شرقي مدينة بغداد ، وهو الجسر الذي كان يقع على طريق خراسان العام، وقد عرفت مدينة النهروان باسم مدينة جسر النهروان نسبة للجسر المذكور . وقد تردد ذكر مدينة

---

(١) راجع ماتقدم في صفحة ١٤١

جسر النهروان هذه فيما كتبه المؤرخون من العرب لمناسبة الحوادث المهمة التي وقعت فيها في مختلف العهود التاريخية من جملتها واقعة النهروان المشهورة التي اندحر بها الخوارج سنة ٣٨ هـ[١]. وكان في جنوب جسر النهروان المذكور جسراً آخر في مدينة عبرتا الواقعة على بعد ٣٨ كيلومتراً من مدينة النهروان جنوباً. وكانت مدينة عبرتا هذه مدينة رئيسية على عهد الفرس تقع على الطريق العام بين المدائن (الايوان) ، التي جعلها الفرس عاصمتهم الشتوية ، وبين بلاد فارس[٢] . أما في الناحية الشمالية فكانت جسور رئيسية على مجرى القائم ومجرى الصنم بالقرب من صدريهما على الطريق العام بين بغداد وسامراء[٣] . ويمكن مشاهدة آثار الجسر الذي على مجرى القائم وهو يقع على بعد حوالي ثلاثة كيلومترات من فمه شرقي برج القائم .

أما الجسور التي كانت على القاطول الكسروي فأهمها الجسر التاريخي المشهور المعروف اليوم باسم « قنطرة الرصاصي » ، ويقع هذا الجسر على مسافة سبعة كيلومترات ونصف من فم مجرى القاطول المذكور ، وكان مبنياً بالاحجار البازلتية السوداء ، وقد استعمل الرصاص في بنائه مما حمل الناس على تسميته باسم « قنطرة الرصاصي » وتسمية المجرى الذي تقع القنطرة عليه باسم « مجرى الرصاصي[٤] ». وقد أشار ابن سرابيون الى جسرين آخرين على المجرى المذكور في جنوب قنطرة الرصاصي أحدهما من الحجارة عند الايتاخية والثاني من الزواريق عند المحمدية[٥] .

اما المدن الرئيسية التي كانت على مجرى النهروان فان أحسن وصف تاريخي لها

---

(١) راجع البحث الذي يلي في الفصلين التاسع والعاشر .
(٢) حول مدينة عبرتا راجع البحث الذي يلي في الفصل العاشر .
(٣) حول الطريق بين بغداد وسامراء راجع البحث الذي يلي في الفصل التاسع .
(٤) حول هذا الجسر راجع البحث الذي يلي في الفصلين الثالث والثامن.
(٥) راجع ماتقدم في صفحة ١٣١

وللنهروان نفسه الوصف الذي دوّنه ابن سرابيون في أواخر القرن التاسع الميلادي فندرجه ادناه لأهميته، وقد بدأ به من فم القاطول الكسروي قال : ـ « ويحمل من دجلة من شرقيها القاطول الاعلى الكسروي أوله أسفل دور الحارث[١] بشيء يسير مماس لقصر المتوكل على الله المعروف بالجعفري[٢] وعليه هناك قنطرة حجارة[٣] ثم يمر الى الايتاخية وعليه هناك قنطرة كسروية ثم يمر الى المحمدية وعليه هناك جسر زواريق ثم يمر الى الاجمة قرية كبيرة ثم يمر الى الشاذروان ثم يمر الى المأمونية وهي قرية كبيرة ثم الى القناطر وهذه قرى عامرة وضياع متصلة ثم يمر الى قرية يقال لها صولى (ذكرت بعده صلوى) وباعقوبا ويسمى هناك تامرّا ثم يمر الى باجسرى ويجيء الى الجسر المعروف بجسر النهروان ثم يمر الى الشاذروان الأعلى ثم يمر الى جسر بوران ثم يمر الى عبرتا ثم الى يزاطية ثم الى الشاذروان الاسفل وهذه قرى وضياع جميلة ثم يمر الى اسكاف بني الجنيد وهي مدينة في جانبين والنهر يشقها ثم يمر بين قرى متصلة وضياع مادة الى أن يصب في دجلة أسفل ماذرايا بشيء يسير في الجانب الشرقي » . وسيأتي البحث عن كل من هذه المدن والمواقع في مجرى فصول الكتاب الآتية .

٧ ـ منشأ النهروان

حاولنا فيما تقدم أن نحيط على قدر الامكان بالمواضيع المتشعبة المتعلقة بوضع النهروان، ويمكننا الآن ابداء بعض الملحوظات الاجمالية عن منشأ النهروان . أما فيما يختص بتاريخ انشاء النهروان فيكاد يكون اجماع على انه انشيء على عهد الساسانيين بدليل ان البلاد اجتازت في هذا العهد خطوات واسعة في مضمار الرقي والعمران . ولعلّ أعظم رخاء شاهده العراق انما كان في عهد ملوك ساسان

---

(١) راجع البحث الذي تقدم عن الدور في صفحة ٥٨

(٢) راجع البحث الذي تقدم عن القصر الجعفري في صفحة ١٣٣

(٣) هي « قنطرة الرصاصي » التي تقدم البحث عنها

حيث ازدهر عمران الري بصورة خاصة في هذا العهد فأعيد احياء معظم مشاريع الري القديمة المهملة وانشئت السدود الضخمة لاستغلال مرافق البلاد الى اقصى حدّ ممكن . وقد امتاز هذا الدور بما تمتع به من استقرار سياسي إذ قامت فيه سلطة موحّدة على انقاض النظام العشائري فوضعت الركن المتين لنهضة عمرانية جديدة شملت طول البلاد وعرضها ، ومما ساعد على نمو تلك النهضه تأثير العقيدة الزوروستيرية التي أصبحت ديانة المملكة في عهد الساسانيين ؛ وهي العقيدة التي جعلت تعاليمها الاهتمام بالزراعة واصلاح الارض وتربية الحيوانات فرضاً مقدساً . ويظن أن أكثر مشاريع الري القديمة كمشروع النهروان وغيره من المشاريع المهمة الاخرى كانت قد أسست فى ذلك العهد . وقد كتب السير ويليم ويلكوكس في وصف أعمال الري في هـذا العهد قال : « ولعل أعظم رخاء شاهدته دلتا العراق انما كان في أيام ملوك الفرس الساسانيين في أول العهد المسيحي ، حيث كان جدول النهروان الواسع الذي يبلغ عرضه أربعمائة قدم وعمقه خمسة عشر قدماً يروي كل المنطقة الواقعة شرقي نهر دجلة » .

ويذهب بعض المؤرخين الى أن إنشاء النهروان كان مقروناً بعوامل عسكرية تستهدف وقاية البلاد من غزوات الرومان ، فيقول هؤلاء بان الفرس قاموا بانشاء هذا المشروع بعد أن شعروا بأن القطر العراقي الذي كان في حوزتهم أصبح مهدداً من جهة شرق دجلة ، حيث صار الرومان يسلكون طريق نصيبين أو سنجار أو أرمينية في غزواتهم للعراق ، فينزلون بسهولة عن طريق السهول الآشورية شرقي دجلة في المواسم الملائمة حتى باب طيسفون . وقد شعر الفرس بأن بقاء هذا السهل بالشكل الذي كان عليه مما يهدّد كيان دولتهم وانهيار امبراطوريتهم فقاموا بانشاء النهروان كمشروع دفاعي في الدرجة الاولى ، أما فوائده الزراعية فكانت في بادىء الأمر ثانوية ولكنها أصبحت الهدف بعد أن زال خطر الغزو على عهد العرب . وغير معلوم بالضبط في أي من عصور

عواهل الفرس انشيء مشروع النهروان ، على أن هناك من يعتقد بأنه إذا كان بدىء به على عهد العواهل الاول فانما لا شك فيه انه تم في زمن سابور الثاني ذي الاكتاف الذي تمتع عهد حكمه الطويل بفترة صلح طويلة مكّنته من انجاز هذه المشاريع دون ما اعتراض أو حائل .

أما تسمية النهروان فهناك ما يدل على انها قديمة للغاية وقد جاء ذكر هذا النهر في اسطوانة اكتشفت في خرائب « خفاجي » الواقعة شرقي نهر ديالى الحالي بين بعقوبة وبغداد ، وكان وروده فيها صريحاً وانه كان يخترق مقاطعة « اشنونا » التي تقع فيها مدينة « اشنونا » ، ويرجح ان خرائب تل اسمر الواقعة على بعد ٣٢ كيلومتراً من شمالي شرقي خفاجي من بقايا مدينة « اشنونا » . والظاهر ان هذه الاسطوانة كتبت على عهد شمسو ايلونا بن حمورابي وخليفته الذي ورد اسمه مقروناً باسم الموقع « دور شمسو ايلونا » المسمى « خفاجي » ، الآن ، وهي تعود الى ما قبل ١٩٠٠ ق . م . على الاقل . والارجح ان النهروان كان في ذلك الدور يقتصر على القسم الذي يمتد بموازاة نهر دجلة بين ديالى والكوت فقط وانه كان يستمد مياهه من نهر ديالى مباشرة أو من أحد فروع ديالى التي كانت تتفرع من جوار مضيق جبل حمرين .

وقد ذكر ياقوت ان للنهروان اسمين أحدهما فارسي والآخر سرياني فالفارسي جوروان والسرياني تامرا فعرّب الاسم الفارسي فقيل نهروان والعامة يقولون نهروان بكسر النون على خطأ .

ومما يلفت النظر ان كلمة « نهروان » مصطلح عليها للدلالة على النهر الكبير أو عمود النهر الرئيسي بصورة عامة ، إذ يلاحظ ان كلمة نهروان تطلق بصورة عامة على الانهر الكبيرة المندرسة من دون تمييز . ومثال ذلك ان الاهلين يطلقون هذه التسمية على نهري « روذان » و « البت » في منطقة العظيم وذلك على الرغم من انهما معروفان باسميهما هذين ، ذلك مما يدل على ان كلمة نهروان

قديمة للغاية ، ويستفاد من الكتابات القديمة بانها كانت بالاصل (ناران) ثم صارت (نهروان) وأخذت هذه الكلمة تستعمل بعد ذلك للدلالة على النهر الكبير بصورة عامة

٨ ـ السدان القديمان على النهرين «ديالى» و«العظيم»

ان من جملة الاعمال التي كان يتطلبها مشروع النهروان ضبط مياه النهرين «ديالى» و«العظيم» وتحويل مجريهما ليتسنى للنهروان اجتيازهما في طريقه الذي يمتد به من فمه عند القائم الى جوار الكوت. وقد عالج الاقدمون ذلك بانشاء سدين ضخمين من الاحجار على المجريين المذكورين لتحويل مياههما عن اتجاههما الاصليين . وقد انشيء هذان السدان في الموضع الذي يقطع فيه كل من النهرين سلسلة جبال حمرين ، فاقيم سد ديالى بالقرب من منصورية الجبل ، وسد العظيم في الموضع المعروف بـ « البند » . ولا يعلم تاريخ انشاء هذين السدين ، كما انه لا يعلم ما إذا كان مجري ديالى والعظيم وتحويل اتجاههما الاصليين من أجل النهروان الذي يستلزم سيره بين سامراء والكوت اجتيازهما أو من أجل هدف آخر بعيد الصلة بالنهروان، ولا يعلم ايضاً ما إذا كان مشروع سد هذين المجريين انجز في نفس الوقت الذي انشيء فيه مشروع النهروان، انما الذي نعلمه بصورة أكيدة هو انه لما انشيء مشروع النهروان كان مجريا النهرين (ديالى والعظيم) يسيران في غير اتجاههما الحاليين ، وهناك ما يدل على ان العرب بعد احتلالهم للعراق حافظوا على هذين السدين وقاموا بصيانتهما لاستغلال مشروع النهروان والاستفادة منه كما استفاد منه اسلافهم .

٩ ـ مشروع سد ديالى القديم

اما مجرى ديالى فقد حوّلت مياهه من أمام السد الذي انشيء في جبل حمرين الى منخفضات الروز الواقعة على محاذاة جدول الروز الحالي[1] ومنها الى بحيرة

(١) حول مجرى الروز هذا راجع البحث الذي يلي في الفصل العاشر (مادة ١) .

الشويجة التي تفضي الى نهر دجلة جنوب مدينة السكوت الحالية[١] . وقد انشيء السد باحجار رملية مقطوعة من الجبل الواقع الى جانبيه ولم يبق من بنائه إلا جزء من جناحه الايسر بالقرب من صدر جدول الروز الحالي ، ويبلغ عرض السد في اعلاه ما يزيد على المترين . ويستدل من الآثار الموجودة على أن هذا البناء كان قاطعاً نهر ديالى الى الجهة الثانية ، ويحتمل انه كان للسد أبواب لتنظيم المياه . ولعل بعض مياه فيضان ديالى كان يجري خلال الابواب المذكورة في مجرى ديالى الاصلي بالقدر الذى تسمح به ظروف الفيضان فينصب في الجانب الشرقي من النهروان قرب مدينة بعقوبة. والدليل على ذلك وجود اماكن من جهة الشمال يسمونها بيوت العباد أو بيوت العبيد ، ولعل العبيد أقرب الى الصحة ، وهذه منحوتة في الجبل نحتاً متقناً. ولا شك أن هذه الاماكن كانت قد اعدّت للنواطير والمأمورين المستخدمين بذلك السد ، ولا بد من انه كان بجوار هذه الامكنة أبنية غير ما ذكر إلا أن تخريبات ديالى على مرور العصور لم تبق لها أثر يستدل به .

وهنالك بعض الروايات تشير الى ان تاريخ انشاء السد على مجرى ديالى وتحويل مياه هذا النهر من مجراه الاصلي الى جهة الروز يرجع الى زمن قديم للغاية ، بدليل ان هيرودوتس ذكر بأن كورش الكبير الذي استولى على العراق في حوالي منتصف القرن السادس قبل الميلاد قام بمشروع من هذا القبيل ، فانشأ سداً على مجرى ديالى وحوّل كل مياهه الى جداول احتفرها لسحب المياه بها الى المزارع الواسعة في الجنوب. واليك ما كتبه هيرودوتس في

---

(٢) راجع بحث المؤلف نفسه بعنوان «مشروعات الري الكبرى ـ خزان بحيرة الشويجة» وقد اقترح فيه مشروع يشتمل على اعادة انشاء سد ديالى من جديد وانشاء خزان في بحيرة الشويجة لخزن مياه فيضان ديالى فيها ثم تحويل هذه المياه الى نهر دجلة جنوبي مدينة السكوت الحالية عندما تشح مياه النهر . وقد طبع هذا الكتيب في مطبعة المعارف سنة ١٩٤٧

هذا الصدد قال : « واذ كان كورش زاحفاً على بابل وصل الى شواطي نهر جيندس (نهر ديالى) الذي يخرج من الجبال المتيانية ويمر ببلاد الدرنيين ويصب في نهر دجلة المار تجاه مدينة أوبيس ويصب في بحر اريترية وهو خليج العجم ، فأراد كورش أن يعبر النهر المذكور وكان العبور لا يمكن إلا بالزوارق فحمى أحد أحصنته البيض المعروفة بالخيل المقدسة وقفز فوق النهر وكان مجرى النهر شديداً فاختطفه وغرق فيه ، ورأى ذلك كورش فاستشاط غيظاً وآلى على نفسه أن يجعله جدولاً صغيراً يسهل على النساء أن يجتزن فيه دون أن يغمرهن أكثر من الركب ، فأوقف مسير جيشه عن بابل وقسمه الى شطرين ورسم بالحبال على كل من جانبي النهر مائة وثمانين ترعة وأقام لها حدوداً وأمر العسكر فأخذ يحفر حتى بلغ الغاية واشغل فيه جمّاً غفيراً من الرجال واقتضى هذا العمل مدة الصيف كلها » .

وخلاصة القول ان السد المذكور، سواء أكان قد تم انشاؤه في زمن الفرثيين أم في زمن الساسانيين أم قبل ذلك ، فان هناك أمراً لامجال للشك فيه وهو أن مشروع السد على نهر ديالى كان قد انشيء قبل مشروع النهروان الذي يمتد بين سامراء والكوت ، إذ لولاه لما أمكن هذا النهر أن يجتاز مجرى ديالى ويمتد جنوباً الى قرب مدينة الكوت الحالية .

ويستدل مما دوّنه المؤرخون العرب ان السد انهار في أواخر القرن الثالث الهجري (أوائل القرن العاشر الميلادي) ، الامر الذي اضطر ولاة الامور أن يقيموا بعد ذلك سداً آخر على مجرى ديالى بالقرب من مدينة جسر النهروان جنوباً بغية تحويل مياه ديالى من امام هذا السد الى مجرى النهروان الاسفل الذي يمتد بين نهر ديالى والكوت[1] . وبذا انقسم النهروان الى شطرين شطر يستمد ماءه من نهر ديالى ،

---

(١) حول تفاصيل انهيار السد راجع الفصل العاشر (النهروان في عهد انحطاطه) .

وهو القسم الذي يمتد بين ديالى والكوت ، وشطر يستمد مياهه من نهر دجلة في جوار سامراء ، وهو يقتصر على القسم الذي يمتد بين سامراء وديالى .

١٠ ـ مشروع سد العظيم القديم

ويمتاز سد العظيم عن سد ديالى بكونه من السدود المرتفعة ، وتعدّ بقاياه من أهم آثار مشاريع الري القديمة في العراق (أن لم يكن أهم ما لدينا) . ويتألف السد هذا من جدار ضخم مسرّح من الخلف على نحو الجدران الداعمة (Retaining Walls) لمقاومة ضغط المياه الذي يتجمع أمام السد . ويبلغ عرض الجدار في القاعدة ٣٦ قدماً ثم يتقلص تدريجياً حتى يصبح حوالي العشرين قدماً عند القمة . ويبلغ ارتفاع هذا الجدار من سطح المياه في النهر الى القمة أربعين قدماً تقريباً ، اما طوله بين الضفتين فيبلغ حوالي ٤٥٠ قدماً جرفت المياه ما يقرب من ٢٠٠ قدم منه في القسم المتوسط ، أي في وسط مجرى النهر ، وقد دعم هذا السد بجناح طويل في كل من الجانبين يمتد الى مسافة عدة أمتار . أما المادة التي انشيء بها فهي من نفس الحجر الرملي الذي بني فيه سد ديالى وهو موجود في جبل حمرين في موضع السد ، وقد قطعت الاحجار بأطوال تتراوح بين ١٦ بوصة وثلاث أقدام وبعرض قدم ونصف الى قدمين وبسمك ١٦ بوصة . ويستدل من بقايا المونة التي استعملت بين الاحجار انها تتألف من خرسانة مزيجة من الجص والنورة والحصى الناعم وقد انتج هذا المزيج خرسانة قوية للغاية .

وقد حوّلت مياه النهر بعد انشاء هذا السد الضخم الى جدولين واسعين يتفرع أحدهما من الضفة اليمنى للنهر وتعرف آثاره اليوم باسم « نهر البت »[1] ، وهو يمتد بموازاة نهر العظيم حتى ينتهي الى الضفة اليسرى للنهروان ، وتتفرع

(١) البت كلمة فارسية معناها واحد أي النهر المنفرد .

منه عدة فروع من ضفته اليمنى كانت تروي الاراضي الواسعة المعروفة الآن بالسيحة والعيث والتي تمتد حتى بحيرة الشارع من جهة الغرب، وطبيعة الاراضي في هذه المنطقة تدل على ان مياه نهر العظيم الزائدة كانت تحول في موسم الفيضان الى بحيرة الشارع ، وذلك عن طريق نهر البت ووادي عسيلة الذي يصب في بحيرة الشارع عند حدها الجنوبي الشرقي[١] . والجدول الثاني يتفرع من أمام السد أيضاً على الضفة اليسرى ويسمى الآن باسم « نهر روذان »[٢] ، وهذا يمتد لمسافة طويلة على محاذاة مجرى العظيم ، ومن أهم فروعه النهر الذي يمتد الى الشرق مخترقاً أرض الغرفة الشاسعة حتى ينتهي بالقرب من مزارع الخالص الحالية. وأهم آثار عمران الغرفة القديم الاطلال المعروفة باسم «العطوانيات»، وهذه تحتل مساحة واسعة من الاراضي كلها تلول من بقايا أبنية ضخمة من الآجر تدل على انها اطلال مدينة مهمة . وتقع هذه الآثار وسط الغرفة شرقي طريق بغداد كركوك العام مباشرة وهي تحاذي وادياً وأسعاً « يسمى وادي الابيتر » من

---

(١) تقع بحيرة الشارع في منطقة سامراء ما بين النهرين دجلة والعظيم وشكلها مستطيل تمتد بموازاة مجرى العظيم من الشمال الى الجنوب الى مسافة ٢٥ كيلومتر تقريباً . أما عرضها فيبلغ معدله خمسة كيلومترات تقريباً وبذا تبلغ مساحتها حوالي ١٢٠ كيلومتراً مربعاً. وتنصب المياه في هذه البحيرة في موسم الامطار من الاودية التي تنحدر من سفوح جبل حمرين والاراضي المرتفعة المجاورة من أطراف البحيرة الثلاثة اي من الشمال والغرب والشرق . اما الحد الجنوبي فهو منخفض وينتهي الى واد طبيعي يعرف باسم وادي السدة ، ويتجه هذا الوادي نحو دجلة فيحمل المياه الفائضة من البحيرة ليصبها في النهر في نقطة تقع أمام مدينة بلد الحالية الواقعة على الجهة الغربية منه .

ويلاحظ ان كل خرائطنا للعراق قد أسمت البحيرة باسم « بحيرة ساري » على حين أن الاسم الحقيقي للبحيرة هو « بحيرة الشارع » ولعل الخطأ حصل في نقل اسم البحيرة من الخرائط الانكليزية الى الخرائط العربية لا سيما وانه لا يوجد حرف (ع) في اللغة الانكليزية .

(٢) كلمة روذان اصطلاح فارسي أيضاً وهي جمع روذ ومعنى الروذ نهر، ذلك ما يدل على ان نهر روذان كان مؤلفاً من فروع رئيسية عديدة .

ضفته اليسرى . ويغلب على الظن أن وادي الابيتر هذا الذي يسير على محاذاة الضفة اليسرى لنهر العظيم هو نهر روذان نفسه وقد اجتاحته السيول فتوسع واصبح عقيقاً للسيول التي تنحدر نحو نهر العظيم من جهته الشرقية . وتقدر مساحة الأراضي التي كان يرويها الجدولان (البت والروذان) بحوالي مليون مشارة من الأراضي .

ويستدل من خرائب المدن والقرى الواقعة على جدولي البت والروذان وفروعها ان المنطقة التي كانت تمر بها هذه الانهر ، وهي المنطقة الواقعة على ضفتي نهر العظيم بين جبل حمرين ودجلة كانت كثيفة بسكانها ومزارعها وبساتينها ، وكانت أكثر بقاع العراق انتاجاً بفضل السد القائم على نهر العظيم .

ويؤيد لنا التاريخ أن منطقة العظيم هذه كانت من أوسع طساسيج السواد على عهدي الفرس والعرب، فكانت تتكون من طسوجين يعرفان بـ «الراذانين» كان أحدهما في غربي مجرى العظيم والآخر في شرقيه . وكان يعرف الأول باسم « الراذان الاعلى » وهو القسم الذي كان يروى من نهر البت ، أما الثاني فكان يسمى «الراذان الاسفل» وهو القسم الذي كان يروى من نهر الروذان[1]. ويظهر أن تسمية « راذان» ترجع الى عهد واغل في القدم ، إذ كان الآثوريون يسمون نهر العظيم « رادان » وكذا أتى اسمه أيضاً في تواريخ الكلدان أو الآثوريين

---

(١) ان التقسيمات الزراعية التي كان يعمل بهـا في ذلك الزمن تتألف من الكورة أو الاستان (والكورة والاستان معنى واحد) وهي اكبر وحدة زراعية في القطر ، فتنقسم الكورة الى رساتيق (جمع رستاق) وينقسم الرستاق الى طساسيج (جمع طسوج) وينقسم كل طسوج الى عدة من القرى . والكورة اسم فارسي بحت وقد استعارتها العرب وجعلتها اسماً للاستان ، وهي الصقع الذي يشتمل على عدة قرى ولا بد لتلك القرى من قصبة أو مدينة أو نهر يجمع اسمها . ويعني بالرستاق كل موضع فيه مزارع وقرى ولا يقال ذلك للمدن فهو بمنزلة السواد وهو اخص من الكورة أو الاستان . أما الطسوج فهو لفظة فارسية أيضاً وهو اخص وأقل من الرستاق وقد قسم سواد العراق على ستين طسوجاً اضيف كل طسوج الى اسم (راجم مقدمة معجم ياقوت الحموي) .

النصارى والبلد الذي في الجهة اليسرى منه كان يدعى أيضاً « رادان »[١]

وقد ذكر ابن خرداذبة ان طسوجي الراذانين يقسمان الى ستة عشر رستاقاً تبلغ بيادرها ثلثمائة واثنين وستين بيدراً وهذه تشتمل على أربعة آلاف وثمانمائة كر من الحنطة واربعة آلاف وثمانمائة كر من الشعير هذا عدا مائة الف وعشرين الف درهم من الورق .

اما الموضع الذي كان الجدولان (البت والروذان) يتفرعان منه فان الجدول الايمن (نهر البت) كان يتفرع في نقطة تقع على بعد ٢٠٠ متر تقريباً من أمام السد ، وعلى الارجح انه كان يسحب المياه دون ناظم في الصدر، حيث لا يوجد أي أثر لناظم في موقع صدره . وكان الجدول الثاني يتفرع من عند السد وفي صدره ناظم ضخم لا تزال بقاياه تؤلف جزءاً من بناء السد نفسه .

والناظم الواقع على صدر نهر الروذان مبني في الجناح الايسر من السد ويتألف من أربع دعامات ضخمة بارتفاع ١٤ قدماً وسمك ١٥ قدماً وطول ٣٥ قدماً، وهذه الدعامات تكون ثلاث فتحات عرض الواحدة منها سبعة أقدام وأربع بوصات. ويختلف بناء هذا الناظم عن بناء السد في مادة بنائه حيث انشيء بالآجر المفخور ومونة النورة ، وقد سدت احدى فتحاته ، وهي الفتحة الأخيرة من الجانب الايسر، ببناء من الحجر الرملي الذي بني به السد ، ويوجد صف من الاحجار بني فوق الناظم على الطريقة التي انشيء بها السد نفسه مما يدل على ان الناظم كان جزء من السد وقد بني في نفس الوقت الذي بني فيه السد[٢] (راجع رسم رقم ٥ ـ سد العظيم القديم في جبل حمرين) .

---

(١) راجع تاريخ كلدو وآثور تأليف ادى شير ، الجزء الاول ، ص ٢

(٢) يظن البعض ان دعامات هـــذا الناظم من بقايا البناء الذي أقامه سليمان باشا المعروف باسم« كجوك سليمان باشا » (والي بغداد بين سنة ١٨٠٨ وسنة ١٨١١) وذلك عندما حاول اعادة انشاء السد . ومن جملة الذين كانوا يحملون هذه الفكرة الاكتور روس الذي زار بند العظيم في سنة ١٨٣٤ وكتب عنه في جورنال

ويلاحظ ان عوامل التعرية (Soil Erosion) قد لعبت دورها في المنطقة التي يتفرع منها نهرا البت والروذان ، ويتجلى تأثير العوامل الطبيعية هذه في المنطقة التي يتفرع منها نهر روذان في الجهة اليسرى ، إذ مزقت أحشاء الأرض هناك بحيث لم تُبق أي أثر لمجرى هذا النهر في صدره . وهكذا فلا نشاهد هناك اليوم سوى سلسلة من الخنادق العميقة والأودية الشاسعة تغزوها السيول في كل عام فتزيد في فعالية التعرية والتخريب .

ويظن أن سد العظيم كان يؤمن ـ فضلاً عن رفع مناسيب مياه نهر العظيم لتحويلها الى الجدولين الماري الذكر ـ خزن بعض المياه أمام السد لعمق حوالي مترين من مستوى قمة السد البالغ ٩٨ متراً فوق سطح البحر . وحيث ان الكمية التي يستوعبها عمق هذين المترين عبارة عن سبعة ملايين متر مكعب فقط، فلم تكن هذه الكمية من الكفاية بحيث يتسنى معها تحقيق ارواء المزارع الواسعة في أوقات انحباس الامطار أثناء الموسم الشتوي وأيام شحة المياه في موسم الصيهود . وهذا ما يؤيد لنا ان جدولي « الروذان » و « البت » كانا يتمونان من مصدر آخر غير نهر العظيم هو من دون شك الزاب الصغير ، وذلك بواسطة قناتي العباسي والفيل المتصلتين بوادي زغيتون الذي يمتد بين الزاب الصغير والعظيم وينتهي في العظيم شمالي موقع السد بقليل . أما في موسم الفيضان فكانت تحوّل مياه الزاب الصغير بعد أن تختلط بمياه العظيم وتجري الى بحيرة الشارع عن طريق نهر البت الآنف الذكر[1] .

= الجمعية الجغرافية الملكية لسنة ١٨٤١ (ص ١٢١ ـ ١٣٦) ، غير ان هذه الفكرة بعيدة عن الواقع كل البعد لأن الناظم مثبت في بناية السد من كل الاطراف مما يجعله جزء من بناء السد كما ذكرنا اعلاه . اما اذا كان سليمان باشا قام بعمل ما على سد العظيم فلا يمكن ان يكون عمله هذا غير ترميمات سطحية قام بها أثناء محاولته لاعادة انشاء السد .

(١) راجع بحث المؤلف نفسه بعنوان « مشروعات الري الكبرى — خزان بحيرة الشارع » وقد اقترح فيه مشروع يشتمل على اعادة انشاء سد العظيم لاحياء

ومن المرجح ان انهيار سد العظيم كان تدريجياً وانه لم يتم نهائياً حتى أواخر القرن الثاني عشر الميلادي (حوالي أواخر القرن السادس الهجري) وذلك بنتيجة تصدع حصل فيه قبل الانهيار النهائي بمدة . ويعتقد البعض أن السد خرّب عمداً خلال الحروب والغزوات التي انتابت البلاد في العهد العباسي الأخير لتخريب النهروان الذي كان يعتبر من أهم الحصون الدفاعية في ذلك الزمن ولا سيما وانه كان أهم مشروع يموّن منطقة دجلة الشرقية بأسرها بمياه الري[1] .

١١ - مشروع سد نمرود القديم

ولا بد من التطرق في هذا الصدد الى البحث عن السد التاريخي المشهور المعروف بـ « سد نمرود » ، وهو السد الذي انشيء على نهر دجلة في شمالي بلد لتحويل مجرى دجلة الرئيسي من عقيقه الأصلي، الذي كان يسير في اتجاه مجرى دجلة الحالي بين بلد وبغداد، الى الاراضي الصلبة الواقعة في الجهة الغربية. فيعتقد السير ويليم ويلكوكس ان مياه دجلة كانت في الماضي تقلب فوق طبقة حجرية صلبة وتدخل الدلتا بمنسوب عال ، إلا انه حصل ائتكال في هذه الارض الصلبة بتأثير المياه منذ العصور التاريخية الغابرة كان من نتائجه أن أقام رجل عظيم سداً ترابياً عبر المجرى وبذلك حوّل المياه الى الأرض الصلبة في الشاطيء الايمن ، وقد عرف هذا السد بأسم « سد نمرود » . ودليل ويلكوكس على ذلك أن هناك، في هذا القسم من دجلة، طبقة حجرية صلبة عمقها عشرة امتار تقع تحت الرواسب السطحية وتغطي طبقة اخرى من الصلصال فتنحدر هـذه الطبقة

= منطقة العظيم من جديد وانشاء خزان في بحيرة الشارع لخزن مياه فيضان النهرين العظيم والزاب الصغير فيها ثم تحويل هذه المياه الى نهر دجلة جنوبي مدينة سامراء عندما تشح مياه النهر . وقد طبع هذا الكتيب في مطبعة المعارف سنة ١٩٤٧ .

(١) حول تفاصيل انهيار سد العظيم راجع البحث الذي يلي في الفصل العاشر مادة « انهيار سد العظيم ونتائجه » .

الصلبة نحو الجنوب الشرقي ثم تختفي تحت قاع النهر شرقي بلد . ويرى السير ويليم أنه بعد تحويل مياه النهر الى جهة الغرب بقي المجرى في تلك الجهة مدة تربو على ثلاثة آلاف سنة وذلك بفضل السد الذي انشيء هناك حتى انهار السد فرجعت مياه نهر دجلة الى المجرى الشرقي الواطيء الأمر الذي أدى الى هبوط منسوب الماء في نهر دجلة في ذلك المكان الى عشرة امتار ، وكانت نتيجة ذلك ان جف النهران العظيمان ـ النهروان ودجيل ـ فتحولت الأراضي الواقعة على ضفتي نهر دجلة في القسم الاعلى من مجراه القديم الى صحراء قاحلة ، ويرى ويلكوكس انه يحتمل بأن سبب انهيار السد يرجع الى فيضان دجلة أو أن الانتكال في قعر النهر وصل الى السد فقضى عليه[1] . ويمكننا ان نلخص آراء السير ويليم ويلكوكس عن سد نمرود فيما يلي : ـ

١ ـ ان السد كان سداً ترابياً .

٢ ـ ان السد كان قد انشيء قبل اكثر من ٣٥٠٠ عام على مجرى دجلة الأصلي وهو المجرى الذي كان يسير في اتجاه المجرى الحالي بين المدينتين بلد وبغداد وبعد أن حصل انتكال في هذا المجرى حفر مجرى جديد في الأراضي المرتفعة على الجانب الغربي وحولت مياه النهر اليه وقد بقي السد قائماً مدة تربو على ٣٠٠٠ سنة

---

(١) قال السير ويليم ويلكوكس : « هناك على بعد بضعة كيلومترات فوق النقطة التي يدخل فيها نهر دجلة دالتاه أقيم في الوادي سد ترابي جسيم يحول النهر فوق الأرض الصلبة لكيما يجري بمنسوب عال فيروي الأراضي الواقعة على ضفتيه . وقد اخذت من طرف السد الأمامي الصدور الثلاثة لجدول النهروان الكبير على الضفة اليسرى وجدول دجيل على الضفة اليمنى . ويعزى الى نمرود الفضل في انشاء السد وتحويل مجرى النهر . وقد بقي هذا السد قائماً مدة تربو على ٣٠٠٠ سنة حين جرفته المياه في عهد آخر الخلفاء العباسيين الضعاف (راجع كتاب ويلكوكس « بين عدن والاردن » الترجمة العربية ص ٤٦ و ٨٣ وتقريره عن ري العراق الترجمة العربية أيضاً ص ٨ و ٥٩) .

٣ ـ ان النهروان بمداخله الثلاثة كان يتفرع من نهر دجلة من أمام السد في الجانب الشرقي وان نهري دجيل والاسحاقي كانا يتفرعان من أمام السد أيضاً في الجانب الغربي وان هذه الانهر انشئت في نفس الوقت الذي انشيء فيه السد .

ومع أننا نتفق مع السير ويليم ويلكوكس بأن السد كان سداً ترابياً إلا أنه لا يسعنا أن نتفق وأياه فيما ذهب اليه حول حفر المجرى الجديد في الجهة الغربية من مجرى دجلة الأصلي وانهيار السد ومنشأ النهروان ودجيل نظراً للادلة التاريخية والبراهين الأخرى التي بين أيدينا والتي تدل على خلاف نظرياته في هذه الامور . أما ما يختص بتحويل مجرى دجلة فالذي نراه هو ان مجرى دجلة كان في القسم الذي يمتد بين المدينتين بلد وبغداد يتألف في الأصل من فرعين رئيسيين ، فرع شرقي يسير باتجاه مجرى دجلة الحالي وهو أشبه بالمصرف منه بالنهر، وفرع غربي وهو المجرى الرئيسي للنهر ينعطف من قرب القادسية فيجري غرباً بموازاة مجرى الفرع الشرقي تاركاً قصبة بلد الحالية في جانبه الشرقي ومدينة سميكة الحالية في جانبه الغربي حتى اذا ما قطع مسافة حوالي مئة كيلومتر التقى بالفرع الشرقي في مكان غير بعيد من شمال الكاظمية

ويظهر ان الفرع الشرقي سدّ من صدره بعد أن حصل الاتكال في قعره وكاد يسحب كل مياه النهر تاركاً الفرع الغربي (مجرى دجلة الرئيسي) من دون ماء ، وقد بقي هذا السد قائماً مدة طويلة حتى جاءت ظروف ملائمة بنتيجة الاضطراب والتدهور اللذين سادا في البلاد فعاد مجرى النهر الرئيسي الى الفرع الشرقي الواطيء سالكاً طريق نهر القورج، وهو النهر الذي حفره كسرى انو شروان قرب سد نمرود ليحل محل مجرى القائم بغية تأمين ايصال المياه الى أراضي النهروان السفلى في موسم الصيهود ، وسيأتي البحث عن النهر المذكور في الفصل الذي يلي (راجع الفصل الثالث « مادة نهر القورج » واللوحتين ٢ و٣). وهكذا صار الفرع الشرقي الذي كان يسير باتجاه مجرى دجلة

الحالي يسحب مياه النهر كلها فأصبح هو المجرى الرئيسي لنهر دجلة تاركاً المجرى الأصلي في الجهة الغربية بين كثبان الرمال يحيط به الجدب من كل صوب ، وقد ساعده على ذلك انخفاض قعره من جهة وارتفاع مستوى المجرى الغربي لكثرة الترسبات التي تراكمت فيه من الجهة الثانية . وهناك دلائل تاريخية موثوقة على ان تحوّل المجرى حصل في أواخر القرن الثاني عشر الميلادي (أواخر القرن السادس الهجري)[١] ، وبعد أن تم التحوّل بصورة نهائية صار الوادي الذي كان يجري فيه نهر دجلة القديم من جهة الغرب يعرف باسم « الشطيطة » ، ولا يزال هذا الوادي يسمى بـ « الشطيطة » حتى الآن[٢] .

والدور الذي لعبه مجرى دجلة بالنسبة الى الفرعين الشرقي والغربي انما يذكرنا بالدور الذي لعبه مجرى الفرات بالنسبة الى فرعي الهندية والحلة ، إذ كان مجرى الهندية في بادىء الامر مصرفاً لنهر الفرات ثم أصبح هو المجرى الرئيسي للنهر في القرون الوسطى ، وكان كذلك في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي للمرة الثانية ، وهو يكوّن المجرى الرئيسي لنهر الفرات في الوقت الحاضر[٣] .

واذا قام الاقدمون بسد فرع دجلة الشرقي سداً تاماً وتحويل كل مياه النهر الى الفرع الغربي ، فذلك لانه لم تكن لديهم الوسائل الحديثة التي تسهل عملية انشاء بناء مع أبواب تفتح في موسم الفيضان وتغلق في موسم الصيهود على نمط قناطر الهندية الحديثة ، لذلك كان لا بد من سد المجرى كله وتحويل مياهه الى

---

(١) كنا قد ذهبنا في كتابنا « وادي الفرات » الجزء الثاني (ص ٢١٠ و ص ٢٥١) الى ان تحول مجرى دجلة حصل في أوائل القرن الرابع عشر الميلادي، الا أن التتبعات والدراسات العملية الاخيرة جعلتنا ننتهي الى النتائج المبينة اعلاه (راجع البحث التالي الخاص بتحول مجرى دجلة في الفصل الحادي عشر) .

(٢) راجع البحث التالي الخاص بمجرى دجلة القديم في هذا الفصل

(٣) حول تطورات مجرى الفرات المذكور راجع الجزء الثاني من كتابنا « وادي الفرات » (الفصول ٥ ـ ٩) .

الفرع الغربي بدلاً من انشاء سد من بناء يتخلله أبواب حديدية لتوزيع المياه على الفرعين الغربي والشرقي بحسب الحاجة .

ويرى البعض ان السد المذكور لم ينشأ لغرض رفع مناسيب المياه في النهر فحسب وانما كان قد انشيء لخزن كمية من المياه في موسم الفيضان في الجهة الامامية من السد على نمط خزان اسوان أو خزان جبل الاولياء في مصر فتكونت بنتيجة ذلك بحيرة داخل وادي النهر بطول ١٢ ميلاً وعرض يتراوح بين الميل الواحد والميل والنصف، وكانت هذه البحيرة تمتد شمالاً الى قرب مدينة سامراء الحالية . إلا ان ذلك بعيد الاحتمال لسببين ، أولهما ان الاراضي على ضفتي النهر وان كانت مرتفعة الى حدما غير انها لا تشكل ارتفاعاً كافياً لاحاطة وادي النهر من جهتيه بحدود مرتفعة تساعد على خزن المياه بكميات كافية ، ثم لو كان هناك خزان من هذا القبيل لكان بقي له بعض الأثر على الاخص قرب مداخل النهروان العديدة ، وفضلاً عن ذلك ان المؤرخين القدماء لم يشيروا الى مثل هذا الخزان في هذه المنطقة ، كل ذلك يدل على ان الغرض من انشاء السد كان يقتصر على تحويل مياه نهر دجلة الى الفرع الغربي كما مر بيانه .

وقد يجوز لنا أن نستدل مما تقدم ان ما ذهب اليه السير ويليم ويلكوكس من ان الاقدمين قاموا بانشاء سد نمرود على المجرى الشرقي الذي كان على حسب ظنه المجرى الرئيسي بغية تحويل مجرى دجلة الى نهر جديد احتفروه في الجهة الغربية لايخلو من الوهم، إذ لو كانوا حفروا مثل هذا المجرى الواسع الذي ينبغي أن يكون بحجم يستوعب كل مياه فيضان دجلة لمسافة تربو على المئة كيلومتر لما اغفلوا ذكره أو اهملوا نقل اخباره .

ولا بد من الاشارة في هذا الصدد الى ان سد نمرود فقد علائمه الأصلية كسد بمرور الزمن حيث أصبح جزء من الاراضي المرتفعة الواقعة على شاطيء النهر ، لا سيما بعد أن انشئت على المجرى الشرقي القديم قرى ومزارع وجداول

أدت الى محو معالم ذلك المجرى واندراس عقيقه تماماً. لذلك فان من الاصح أن يقال إن مجرى دجلة تحول من عقيقه الغربي العالي الى المجرى الشرقي الواقع في الاراضي الواطئة بدلاً من ذكر انهيار سد نمرود القديم، إذ لم يبق هناك سد لينهار، وكل ماحدث هو ان مجرى دجلة تحول من عقيقه الغربي الى جهة الشرق حيث يسير مجرى دجلة الحالي، وكان ذلك من جنوب موقع سد نمرود القديم على اثر انبثاق صدر نهر القورج الذي كان يتفرع من نهر دجلة في ذلك الموضع[١] وعلى أثر انهيار سد العظيم الذي ساعد على ذلك التحول[٢].

ويستدل من تدقيق المناسيب على أن مشروع سد نمرود كان يحقق رفع منسوب مياه النهر في موسم الصيهود الى حوالي تسعة أمتار فوق منسوب النهر الصيفي الحالي، بدليل ان منسوب قعر مجرى القائم في الصدر، وهو المجرى الذي كان يستعمل في موسم الصيهود في ذلك العهد، يبلغ حوالي ٥٠ر٦٠ متراً فوق معدل مستوى سطح البحر، على حين أن معدل منسوب المياه الصيفي الحالي في نهر دجلة يبلغ زهاء ٥٠ر٥٠ متراً أمام برج القائم. كذلك ان منسوب قعر صدر المجرى الاسفل الذي يتفرع عند الصنم أمام القادسية يعلو عن منسوب مياه نهر دجلة الصيفي الحالي في هذا المكان بما يقرب من عشرة أمتار أيضاً.

اما ماذهب اليه السير ويليم ويلكوكس من أن مشروع النهروان بمداخله الثلاثة انشيء في نفس الوقت الذي انشيء فيه سد نمرود أي قبل اكثر من ٣٥٠٠ سنة على اعتبار ان سد نمرود انشيء لغرض تأمين ايصال المياه اليه، بعيد عن الواقع للاسباب التي مر ذكرها في بحثنا عن منشأ النهروان. اما مشروع نهر دجيل الذي يرى انه انشيء في نفس الوقت أيضاً فهناك ما يثبت لنا انه

---

(١) راجع البحث التالي في الفصلين الثالث والحادي عشر

(٢) راجع البحث الذي تقدم عن انهيار سد العظيم في صفحة ١٦٧ والبحث الذي يلي في الفصل الحادي عشر.

يعود الى دور متأخر أي الى ما بعد انشاء النهروان[١] .

ومما يدل على تردد السير ويليم ويلكوكس وشكوكه فيما ذهب اليه حول تاريخ سد نمرود وتطوّره ان كتاباته في هذا الصدد جاءت غامضة ومتناقضة ، فبعد أن أيد في كتابه « اعادة احياء مشاريع الري القديمة على نهر دجلة » المطبوع في سنة ١٩٠٣ ما ذهب اليه فيليكس جونس من أن سد نمرود جرف بفيضان دجلة العظيم الذي وقع في سنة ١٦٢٩ الميلادية ، عاد فقال في تقريره المرفوع الى الحكومة العثمانية سنة ١٩١١ ما يلي : « وفي ايام الاضطرابات التي حدثت بعد الخراب الذي جرى على يد هولاكو وتيمورلنك ، حل الدمار في طول البلاد وعرضها ولا ندري فيما اذا كانت سد نمرود قد جرفت بفيضان دجلة أو ان الائتكال الذي كان يحصل في قاع مجرى دجلة الجديد وصل الى السدة فقضى عليها » . ثم ذكر في مقاله « مستقبل العراق » المنشور في مجلة الشرق الادنى سنة ١٩١٦ أن « سد نمرود بقي قائماً مدة تربو على ٣٠٠٠ سنة ، حتى جرفته المياه في عهد آخر الخلفاء العباسيين الضعاف » . وفضلاً عن ذلك ان السير ويليم ويلكوكس رفع مقترحات عديدة حول اعادة احياء مشروع سد نمرود القديم مما يدل على انه لم يكن حاسماً في آرائه ولا واثقاً من نفسه فيما يختص بموضوع السد المذكور ، إذ يبدأ فيقول ان محل العاشق خير موقع لتحويل مجرى دجلة منه ، فيضع تصميماً لانشاء سدة ترابية في ذلك المكان طولها حوالي سبعة كيلومترات وعرضها في القمة عشرة أمتار وتساريحها ١ في ٢ من الامام و ١ في ٤ من الخلف ، على أن يحوّل نهر دجلة من أمام السدة المذكورة ليسير في الجهة الشرقية في اتجاه النهروان . ومما يلفت النظر ان السير ويليم ويلكوكس لم يذكر شيئاً عن الاتجاه الذي كان ينوي

---

(١) حول مشروع نهر دجيل راجع البحث التالي الخاص بنهر دجيل في الفصلين الثالث والحادي عشر .

تحويل المجرى فيه بعد أن يتصل بالنهروان ، فهل كان يروم تمديد المجرى الجديد في اتجاه النهروان الى قرب الكوت حيث ينتهي مشروع النهروان أو كان ينوي ارجاعه الى مجرى دجلة الرئيسي مكانا ما من شمال بغداد ، واذا كان يروم اتباع الطريقة الثانية أين يكون المكان الذي سيلتقي فيه المجرى الجديد بمجرى دجلة ، فكل ذلك غير موضح . وبعد أن يرفع السير ويليم ويلكوكس هذا الاقتراح ويدوّن تصميمه[١] يعود فيقترح هذه المرة انشاء السد الترابي في جنوب سامراء قرب القادسية ، ولكنه لم يوضح كيفية تحويل المجرى كما انه لم يشر الى الجهة التي يحوّل اليها النهر . وبعد كل هذا يعود فيقترح انشاء سد غاطس واطيء على مجرى دجلة بالقرب من القادسية فيرفع به منسوب الماء الصيفي الى ٥ر٥٢ متراً فوق سطح البحر ، أما في الشتاء فيقلب الماء من فوق السد[٢] . وأخيراً ينتهي الى الاقتراح الذي يقضي بانشاء قناطر في المكان الاخير نفسه فيرفع بها منسوب الماء الى ٥٠ر٥٤ متراً ليعيد بذلك احياء نهري دجيل والاسحاقي على الضفة الغربية من دجلة[٣] . وفي كلتا الحالتين الاخيرتين يقتصر المشروع على رفع منسوب الماء في النهر دون تحويل المجرى الى جهة جديدة[٤] .

١٢ ـ سور الميزبين وسد نمرود

ومما يدل على ان الاقدمين كانوا يعلقون على مشروع سد نمرود أهمية كبرى أنهم أقاموا في جواره تحصينات عسكرية ضخمة لصد هجمات الاعداء والحيلولة

---

(١) راجع خارطة رقم (٧٠) من مجموعة الخرائط المرفقة مع تقرير السير ويليم ويلكوكس عن ري العراق

(٢) راجع خارطة (٤١) من خرائط ويلكوكس المرفقة مع تقريره عن ري العراق

(٣) راجع خارطة (٧١) من خرائط ويلكوكس المرفقة مع تقريره عن ري العراق

(٤) راجع تقرير ويلكوكس عن ري العراق (الترجمة العربية) ص ٥٩ ـ ٦٠

دون وقوع هذا الموضع الستراتيجي الحيوي بايدي العدو . وما زالت هذه التحصينات ماثلة للعيان ، فهي تتألف من جدار ضخم من اللبن مدعم بدعامات كبيرة . ومما يلفت النظر أن اللبن المستعمل في البناء يبلغ من الحجم بحيث يضاهي أكبر أنواع الآجر البابلي القديم ، وليس في هذه المنطقة مايساوي حجمه غير اللبن المستعمل في بناء حصن القادسية الواقع في الجهة الشمالية الشرقية من موضع سد نمرود وأبنية الحصون الفارسية القديمة . أما الجدار فيبدأ من الضفة اليمنى من نهر دجلة في نقطة تقع في جوار موضع سد نمرود من جهة الغرب ، فيمتد غرباً مخترقاً الأراضي السهلة الواقعة على الجانب الغربي من دجلة ، وبعد أن يسير مسافة حوالي عشرة كيلومترات في هـــذا الاتجاه ينتهي الى حدود الأراضي الصحراوية المرتفعة . ويعرف هذا الجدار اليوم باسم « عرقوب المطبّق » ويمكن المرء أن يتتبع آثاره بين « إمام الخضر » وحدود الصحراء المرتفعة بكل سهولة نظراً لضخامته وارتفاعه . وتشاهد في نهاية الجدار آثار بناء مربع يبلغ طول ضلعه زهاء ثلاثين متراً ، وفي كل من الاركان الاربعة لهذا البناء برج ضخم ينظر منه الى مسافات بعيدة من جميع أطراف الصحراء المجاورة ، كما تشاهد آثار خندق عميق يسير الى محاذاة الجدار شمالاً ، وقد انشيء هذا الخندق وفق الطريقة التي كان يتبعها الاقدمون في انشاء تحصيناتهم العسكرية . وكان الخندق المذكور يستمد مياهه من نهر دجلة من أمام سد نمرود (راجع رسم رقم ٢ أ) .

ومما لا شك فيه ان للجدار المذكور صلة مباشرة بالسد الذي كان قد أقيم على مجرى دجلة في هذا الموضع، أي موضع سد نمرود، على ان الـكثير من الـكتاب والمحققين الآثاريين قد توهموا فظنوا ان هـــذا الجدار كان يمتد في الصحراء الواقعة بين نهر دجلة والفرات ، فيبدأ من ضفة دجلة اليمنى وينتهي الى ضفة الفرات اليسرى وانه السور التاريخي المشهور المعروف باسم « سور الميديين » ، وهو السور الذي أشار اليه زينفون في كتابه عن حملة العشرة آلاف المشهورة، ونعني بذلك الحملة التي نظمها كورش الصغير في اليونان في سنة ٤٠١ قبل الميلاد

ووجهها ضد أخيه ارتاكسركس للاستيلاء على عرش المملكة الفارسية في بابل.
و«سور الميديين» هو الاسم الذي اطلقه المؤرخون والباحثون على التحصينات التي كان قد أقامها البابليون لاستخدامها في الدفاع عن مملكتهم وصد عادية الميديين عنهم

وقد وصف المستر جيزني رئيس البعثة البريطانية التي قامت بمسح نهري دجلة والفرات بين سنة ١٨٣٥ وسنة ١٨٣٧ الجدار في قسمه الواقع قرب نهر دجلة فقال ان ارتفاعه يتراوح من ٣٥ الى ٤٠ قدماً وان هناك أبراجاً كثيرة على جهته الشمالية تقع على بعد مسافات متقاربة ، ثم ذكر ان هناك آثاراً لخندق عرضه ٢٧ متراً تقريباً بنيت اطرافه بالحصى والنورة يقع في الجهة الشمالية من الجدار ويسمى باسم «الجالي» . وقد ذهب المستر جيزني الى ان هذا الجدار يمتد الى نهر الفرات مستنداً بذلك الى كتابات المستر فيتز جيمس (Fitz James) والدكتور روص (Dr. Ross) والملازم لنج (Lt. Lynch) الذين سبقوه في ابداء هذا الرأي المبني على الحدس دون ان يتبعوا آثار الجدار وسط الجزيرة . ويتضح مما تقدم ان ماذهب اليه هذا الفريق من أن السور يمتد الى نهر الفرات لم يكن إلا استنتاجاً وهمياً مستنداً الى آثار الجدار القديم بالقرب من دجلة من جهة وكتابات الاغريق التي نوهت بوقوع سد الميديين بالقرب من نهر الفرات من الجهة الاخرى .

وقد خالف بعض الخبراء الرأي المذكور فرأى هؤلاء ان الجدار الذي تقدم وصفه جدار مستقل يتصل بمشروع سد نمرود ولا علاقة له بسور الميديين الذي ينبغي التحري عنه في مكان آخر . وقد اطلق هذ الفريق على الجدار اسم «سور سيميراميس» لتمييزه عن سور الميديين الذي كان يقع في الجنوب[1] ،وكان السير

---

(١) راجع الجزء الثاني من كتابنا «وادي الفرات» فقد أبدينا فيه الرأي القائل بوقوع سور الميديين في الجنوب (ص ١٧ ـ ٢٧) وقد أيدت نتائج التنقيبات الاثرية الأخيرة ذلك اذ ثبت موضع مدينة اوبيس القديمة التي كان سور الميديين ينتهي عندها جنوبي مدينة بغداد (راجع مجلة « سومر » عدد كانون الثاني ١٩٤٧ ، القسم الانكليزي ، ص ٤ ـ ٦

ويليم ويلكوكس من مؤيدي الرأي الاخير فكتب قائلاً : « ويشاهد اليوم على الجانب الأيسر من نهر دجلة في هذا المكان (أي مكان سد نمرود) حصن مهيب (ويقصد بذلك حصن القادسية)(١) وعلى الجانب الآخر سور سيميراميس الذي يسمى في بعض الخرائط خطأ سور الميديين وكانت تصون هذه المباني جناحي سد نمرود » . وكان يرى ويلكوكس ان سور الميديين كان يمتد بين الفرات ودجلة فيبدأ من قرب صدر نهر الصقلاوية الحالي فيسير نحو عقرقوف ثم ينتهي الى دجلة جنوبي بغداد ، وكان هذا السور يحمي البابليين من غارات الآشوريين كما كان يحميهم من عدوان الميديين في العهد الذي سبق العصر الفارسي (٢)

١٣ - مجرى دجلة القديم

قلنا فيما تقدم ان مجرى نهر دجلة تم تحويله الى الجهة الغربية بعد ان اقيم سد نمرود على المجرى القديم للنهر ، وقد يكون من المفيد ان نصف المجرى الغربي المذكور ونبحث في المدن التي ازدهرت على ضفافه في العهد العباسي. وقد تتبعنا آثار هذا المجرى من أوله قرب سامراء الى نهايته بجوار الطارمية واثبتنا مواضع المدن المهمة التى كانت عليه ، وان معظم هذه المدن مازالت محافظة على اسمائها الاصلية رغم التحريف البسيط الذي طرأ على القليل منها . ويجد القارىء في اللوحة رقم ٦ خارطة حقيقية تبين اتجاه هذا المجرى كما كان عليه في العهد العباسي يوم اتخذ العباسيون موضع سامراء عاصمة لامبراطوريتهم ومواضع المدن المهمة التي كانت على ضفاف ذلك المجرى في ذلك الزمن .

« ١ » حول حصن القادسية المذكور راجع البحث الخاص بسور القادسية في الفصل الرابع التالي .

« ٢ » راجع كتاب « بين عدن والاردن » للسير ويليم ويلكوكس ، الترجمة العربية ، ص ٧٩

ويتضح من الخارطة المذكورة ان معالم مجرى دجلة الغربي القديم لا تزال واضحة وتسمى في معظم اقسام المجرى « الشطيطة » ، وهو الاسم الذي يطلق عادة على معالم المجرى المهجور الذي يتركه النهر بعد تحوله عنه ، ونظراً لانخفاض الوادي الذي كان يسير فيه النهر بالنسبة الى مستوى الاراضي المجاورة التي كانت تكوّن ضفافه ، نجد ان مياه الفرات تتسرب اليوم الى بعض اقسام « الشطيطة » المذكورة في موسم الفيضان حين يرتفع منسوب مياه نهر دجلة الحالي الذي يجري بالقرب منها من جهة الشرق ، كما ان بعض الثغرات التي تحصل في الاسداد الغربية من دجلة الحالي تسيل الى المواضع المنخفضة من « الشطيطة ». ويقع اوطأ هذه المواضع جنوباً بالقرب من « الطارمية »(١) ، فلا تزال تتجمع فيه المياه في موسم الامطار فتتسرب أولاً الى المنخفض المعروف باسم « كرّة الزهيري » ثم الى المنخفض الثاني الذي يليه والمسمى « كرة الطارمية » . وكان منخفض الطارمية قبل وقت غير بعيد يكوّن بحيرة واسعة تتسرب اليها المياه من الضفة الغربية لمجرى دجلة الحالي من موضع الوادي المعروف اليوم باسم « وادي الرفيع » ، وهو الوادي الذي لا تزال آثاره ظاهرة حتى الآن . وكذلك كانت تنصب في هذا المنخفض بعض مياه نهر دجيل الزائدة في العهد الاخير من ذلك النهر . وكانت المياه تتجمع في بحيرة الطارمية الى عمق حوالي خمسة امتار في « كرّة الطارمية » (بين منسوب ٣٦ متراً ومنسوب ٣١ متراً فوق سطح البحر) وعمق حوالي ثلاثة امتار في « كرّة الزهيري » (بين منسوب ٣٦ متراً و ٣٣ متراً فوق سطح البحر) . وكانت مساحة الأراضي التي تغمر بمياه الفيضان في البحيرة حوالي سبعين كيلومتراً مربعاً بمنسوب ٣٧ متراً فوق سطح البحر . والى قبل

---

(١) ان اصطلاح « طارمية » مشتق من الكلمتين « طفار » و « مائة » ومعناها ان الأرض في هذه المنطقة كانت تنتج حاصلا يساوي مئة طفار مقابل كل طفار واحد من البذر الذي يبذر في تلك الأرض .

وقت غير بعيد غمر منخفض الطارمية ثلاث مرات ، وكان ذلك في فيضانات سني ١٩١٩و١٩٢٣و١٩٢٦، وكانت المساحة المغمورة في هذه الفيضانات ٧٨ كيلومتراً مربعاً . ولما زار فيلكس جونس هذه المنطقة في ربيع سنة ١٨٥٠ (بين ٢٠و٢٥ مارت من تلك السنة) كانت « كرّة الطارمية » مملوءة بالماء فأرتوى هو وقافلته منها ، اما « كرّة الزهيري » فكانت يابسة آنذاك .

واذا ما تتبعنا آثار مجرى دجلة القديم مابين سامراء وبغداد نجد انه كان ينحرف الى الغرب من امام سد نمرود القديم في نقطة تقع شرقي « تل مسعود »[1] بقليل فيسير في الاتجاه الجنوبي الشرقي موازياً نهر دجيل الحالي ، الذي يمتد الى غربيه نحو الجنوب الشرقي ايضاً ، تاركاً « تل جبارات »[2] على ضفته الشرقية، وبعد ان يقطع مسافة حوالي تسعة كيلومترات في هذا الاتجاه يصل الى مدينة « العلث » الواقعة على ضفته الشرقية، ثم يميل الى الشرق فيشكل نصف دائرة تاركاً عندها قريتي « الحظيرة » و « بلد » على ضفته اليسرى ومدينة « حربى » مقابل الحظيرة على ضفته اليمنى ، ويسمى المجرى هنا باسم « نصة الشطيطة » في الوقت الحاضر[3] . وبعد ان ينهي المجرى دورته في جنوبي بلد يسير على محاذاة سكة حديد (بغداد ـ سامراء) شرقاً ، تاركاً قبر « امام الشيخ سعدي » ومحطة بلد الى جانبه الغربي و « تل عابر » الى جانبه الشرقي حتى يصل الى « تل الصخر » و « عرقوب الحسينية »، فيترك الأول الى جانبه الأيسر والثاني الى جانبه الأيمن. وعلى مسافة قليلة من شرقي تل الصخر يلتقي المجرى بمجرى العظيم القديم ، وهو المجرى الذي لا تزال آثاره ماثلة للعيان ، فيسير بين مجرى دجلة الشرقي الحالي

---

(١) حول « تل مسعود » المذكور راجع ماتقدم في صفحة ٩٤ حاشية ٣

(٢) ان « تل جبارات » المذكور تل واسع يرجح انه موضع احدى المدن التي ازدهرت في العهد العباسي على طريق البريد العام مابين بغداد وسامراء

(٣) حول مدينة الحظيرة وبلد وحربى راجع البحث التالي الخاص بطسوجي « يزرجسابور » و « مسكن » في هذا الفصل

ومجرى دجلة الغربي القديم، فيبدأ من شرقي «إمام السيد محمد» وينتهي عند ملتقاه بمجرى دجلة القديم قرب « عرقوب الحسينية » ماراً في طريقه بالتل المسمى « تل الذهب » الذي يتركه الى جانبه الايسر . وقد دلت تدقيقاتنا في هذه المنطقة على ان الفيضانات العالية في مجرى دجلة الحالي كانت ولا تزال تؤدي الى تسرّب مياه دجلة الى مجرى العظيم القديم ومنـــه الى مجرى دجلة الغربي القديم (الشطيطة) ، فتدخل فيه من شرقي «إمام السيد محمد» وتتجه الى جهة مجرى دجـــلة القديم فتسير فيه حتى تصل الى قرب بساتين سميكة الحالية (راجع اللوحتين ٣ و ٦) . ويسمى المجريان القديمان (دجلة والعظيم) في هذا المـكان « شط السجلة » في الوقت الحاضر .

وبعد التقاء دجلة والعظيم قرب « عرقوب الحسينية » يسير مجرى دجلة القديم في عدة تعرجات وتشعبات فيترك « تلول الحير » الى جانبه الايسر ، وهي التلول التي يرجح ان قرية « باحمشا » كانت فيها ، ويترك محطة سميكة الحالية وقرية « مسكن » القديمة الى جانبه الايمن ، ثم يسير في الوادي المعروف بـ « العوار الصغير » ومن ثم في الوادي الذي يليه جنوباً والمعروف بـ «العوار الـكبير » ، وبعد ذلك يصل الى مدينتي « عكبرا » و « اوانا » ، فيترك الاولى على جانبه الشرقي والثانية على جانبه الغربي(١) ،وبعد ان يجتاز المجرى مدينـــة «عكبرا» يسير الى الجنوب تاركاً منخفضي الزهيري والطارمية الى جانبه الغربي وقرية « بصرى» الواقعة في « تل البصيرة » الحالي الى جانبه الشرقي ، وبعد ان يسير في هذا الاتجاه حوالي عشرين كيلومتراً يصل الى مجرى دجلة الحالي بالقرب من الطارمية على مسافة قليلة من شرقي « خان المشاهدة » ، وهنا يقطعه مجرى دجلة الحالي عند الراشدية . ويسير المجرى بعد ذلك شرقي مجرى دجلة الحالي

---

(١) حول « باحمشا » و « ومسكن » و « عكبرا » و « اوانا » راجع البحث التالي الخاص بطسوجي « بزرجسابور » و « مسكن » في هذا الفصل

تاركاً موضع الداودية الى جانبه الغربي وقرية «البردان» الواقعة في «تل بدران» الحالي الى جانبه الشرقي، ويتصل اخيراً بمجرى دجلة الحالي بالقرب من «التاجي» الحالية التي تبعد حوالي عشرين كيلومتراً من شمال مدينة بغداد (راجع اللوحة رقم ٦)[١].

وكان نهر دجيل يسير موازياً مجرى دجلة من جهة الغرب فتمتد ما بين بلد وبغداد، وكانت تتشعب من ضفتيه فروع كثيرة فتمتد الفروع الغربية الى جهة سهل الجزيرة الواقعة ما بين دجلة والفرات لارواء الاراضي الزراعية هناك، اما الفروع الشرقية فتمتد الى جهة مجرى دجلة فتروي الاراضي الزراعية الواقعة ما بين نهر دجيل ومجرى دجلة (٢).

وقد ثبت عندنا ان نهر دجلة تحول الى المجرى الشرقي الحالي في أواخر القرن الثاني عشر الميلادي (آخر القرن السادس الهجري) (٣) تاركاً المجرى الغربي من دون ماء، الأمر الذي ادى الى انقطاع المياه عن المدن والقرى والمزارع الواقعة على ضفافه، وعلى أثر ذلك فتح المستنصر فروعاً خاصة من الضفة اليسرى لنهر دجيل ومدها على محاذاة ضفة مجرى دجلة القديم او في وسطه في بعض المواضع لايصال المياه الى تلك المدن، وأهم هذه الفروع الفرع الذي كان ينتهي الى قريتي الحظيرة وبلد والذي سمي «نهر المستنصر»، وهو لا يزال محافظاً على اسمه القديم (٤).

---

(١) حول «بصرى» و «البردان» راجع البحث التالي الخاص بطسوجي «بزرجسابور» و «مسكن» في هذا الفصل.

(٢) حول نهر دجيل راجع البحث التالي الخاص بـ «طسوج مسكن» في هذا الفصل والبحث في الفصلين الثالث والحادي عشر.

(٣) راجع ما تقدم في صفحة ١٧٠ والبحث الذي يلي الخاص بمشروع الفورج في الفصل الثالث والبحث الخاص بتحول مجرى دجلة في الفصل الحادي عشر.

(٤) راجع البحث التالي الخاص بنهر دجيل القديم في الفصل الثالث والبحث الخاص بدجيل المستنصر في الفصل الحادي عشر.

١٤ ـ طسوجا « بزرجسابور » و« مسكن »

وكان قد ازدهر على ضفاف مجرى دجلة القديم طسوجان ، الشرقي (طسوج بزرجسابور) الذي يشمل الاراضي والقرى الواقعة على الجانب الايسر من النهر، والغربي(طسوج مسكن) الذي يشمل الاراضي والقرى الواقعة على الجانب الأيمن من النهر . وقد ازدهرت مدن وقرى مهمة كثيرة على ضفاف النهر داخل هذين الطسوجين أهمها « العلث » و « بلد » و « الحظيرة » و « باجمشا » و « عكبرا » و « بصرى » من ضمن « طسوج بزرجسابور » في الجانب الشرقي،و «حربى» و « اوانا » و « مسكن » و « دجيل » و « المنارية » من ضمن « طسوج مسكن » في الجانب الغربي .

وكان يشمل « طسوج بزرجسابور » المنطقة الواقعة شرقي النهر برمتها ومن ضمنها عقيق فرع دجلة الشرقي الذي أصبح أرضاً زراعية بعد انشاء سد نمرود وتحويل مجرى النهر الى الفرع الغربي ، فيمتد أكثر من سبعين كيلومتراً في الطول ومعدل عشرة كيلومترات في العرض ، أي ما يبلغ مساحته حوالي ربع مليون دونم (مشارة) ، وكان معظم أراضي هذا الطسوج يروى من القاطول الأعلى الكسروي ، أما جبايته فكانت فى أيام المعتصم ألفين وخمسمائة كر من الحنطة وألفين ومائتي كر من الشعير[١] وثلثمائة ألف درهم من الورق[٢] . ومما كتبه المسعودي (المتوفي سنة ٣٤٥هـ) في وصف حد السواد الأعلى قال: « وقد حد كثير من الناس السواد وهو العراق فقالوا حده مما يلي المغرب وأعلى دجلة

---

(١) الكر مكيال قديم كان يستعمل في العراق قديماً وهو أربعون اردباً أو ٩٦٠ صاعاً ، ولما كان الصاع مساوياً حوالي ستة كيلوات فيكون وزن الكر ٥٧٦٠ كيلوغراماً ، أي حوالي خمسة أطنان ونصف ، وبهذا يكون وزن الألف كر حوالي ٥٥٠٠ طن.

(٢) حول طسوج بزرجسابور راجع الفصل التاسع (مادة ٢) .

من ناحية آثور وهي الموصل القريتان المعروفة إحداهما بالعلث من الجانب الشرقي من دجلة وهي من طسوج بزرجسابور والاخرى المعروفة بحربى وهي بازائها في الجانب الغربي من طسوج مسكن ومن جهة المشرق الجزيرة المتصلة بالبحر الفارسي الخ ... »[١] وقريب من هذا ما قاله ابن رستة في هذا الموضوع[٢].

أما المدن والقرى المهمة التي كانت على مجرى دجلة ضمن «طسوج بزرجسابور» فأولها من الشمال مدينة « العلث » ، وهي المدينة التي ما زالت خرائبها الواسعة تشاهد على مسافة حوالي سبعة كيلومترات من شمالي غربي مدينة بلد الحالية ، وقد حافظت على اسمها القديم حتى اليوم فهي لاتزال تسمى أطلالها بالعلث، كما أنه لا يزال يسمى سكنة هذه المنطقة « علثاويين » . وتمتد خرائب العلث هذه على طول الضفة اليسرى لمجرى دجلة القديم « الشطيطة » ، وهو المجرى الذي يسير فيه نهر بلد الحالي الذي يتفرع من ضفة نهر دجيل اليسرى وينتهي الى بساتين بلد الحديثة (٣) .

ويوجد شرقي خرائب العلث المذكورة، على بعد حوالي ثلثمائة متر منها تقريباً، تل مدور الشكل يسمى « تل صنكر » يرجح أنه جزء من خرائب العلث ، كما أن هناك نهراً مهجوراً يسمى « نهر العلث » يتفرع من نهر دجيل فيسير موازياً نهر بلد شمالاً فيمر من قرب « تل جبارات » ثم ينتهي الى منطقة سراجي الواقعة قرب «قبة الشيخ جادر» القائمة فوق « تل ام صايح »، ولا شك في أن هذا الفرع أنشىء لأرواء منطقة العلث بعد أن تحول مجرى دجلة عنها (راجع اللوحة رقم ٢) (٤) . ومما يدل على استمرار ازدهار مدينة العلث بعد تحول

---

(١) راجع كتاب « التنبيه والاشراف » ص ٣٨ .

(٢) راجع كتاب « الأعلاق النفيسة » ص ١٠٤ .

(٣) حول نهر دجيل راجع البحث التالي الخاص بطسوج مسكن في هذا الفصل والبحث في الفصلين الثالث والحادي عشر .

(٤) حول تحول مجرى دجلة ، راجع ما تقدم في صفحة ١٧٠ والبحث التالي الخاص بمشروع القورج في الفصل الثالث والبحث الخاص بتحول مجرى دجلة في الفصل الحادي عشر .

مجرى دجلة عنها أن المستنصر كان يقصدها بين حين وآخر للاتصال بعلمائها ، فقد ذكر سبط ابن الجوزي في كتابه (مرآة الزمان) أن المستنصر « كان يمضي الى العلث قرية من دجيل بينها و بين بغداد مسيرة يومين حتى يزور اسحاق العلثي الحنبلي »

وذكر ياقوت في معجمه أن العلث « قرية على دجلة بين عكبرا وسامراء موقوفة على العلويين وهي أول العراق في شرقي دجلة وفيها يقول أحمد بن جعفر جحظة :

وحانة بالعلث وسط السوق نزلتهـا وصارمي رفيقي »

وقريب من هذا ما كتبه ابن عبدالحق في المراصد قال : « والعلث قرية على دجلة بين عكبرا وسامراء وموقوفة على العلويين كانت في شرقي دجلة وهي الآن (سنة ٧٣٩) من عمل دجيل على الشطيطة . »

وكان الى جانب مدينة العلث دير يعرف باسم « دير العلث » وهو الذي امتدحه الشابشتي فقال عنه فيما قاله : « وهذا الدير راكب دجلة وهو من أحسن الديارات موقعاً وأنزهها موضعاً ، يقصد من كل بلد ، ويطرقه كل أحد ولا يكاد يخلو من منحدر ومتعمد ، ومن دخله لم يتجاوزه الى غيره لطيبه ونزهته ووجود جميع ما يحتاج اليه بالعلث وبه . » ويقال أن « دير العذارى » المشهور كان في دير العلث المتقدم الذكر ، فجاء في « ممالك الابصار للعمري (المتوفي سنة ٧٤٩هـ) أن دير العذارى « بين سر من رأى وبغداد بجانب العلث على دجلة ، في موضع حسن . فيه رواهب عذارى . وكانت حوله حانات للخمارين وبساتين ومتنزهات . لا يعدم من دخله أن يرى من رواهبه جواري حسان الوجوه والقدود والألحاظ والالفاظ . قال الخالدي : ولقد اجتزت به فرأيته حسناً ، ورأيت في الحانات التي حوله خلقاً يشربون على الملاهي . وكان ذلك اليوم عيداً له . ورأيت في جنينات لرواهبه جماعة يلقطن زهر العصفر ، ولا يماثل حمرة خدودهن . ثم أن دجلة أهلكته بمدودها ، حتى لم يبق منه أثر . ولجحظة فيه أخبار وأشعار

لأنه كان معانه ومأواه ، واليه ينجذب به هواه . وفيه يقول ابن المعتز :

أيا جيرة انوادي على المشرع العذب
سقاك حيـاً حي الثرى ميّت الجدب
وحسبك يا دير العـذارى قليل ما
يحنّ بمـا تحويه من طيبـة قلـبي
كذبت الهوى إن لم أقف أشتكي الهوى
إليك وإن طال الوقوف على صحبي »(١)

هذا فيما يتعلق بمدينة العلث ، أما القصبة التي كانت تليها في الجنوب ضمن «طسوج بزرجسابور» فهي قرية « الحظيرة»، وهذه تقع على الضفة الشرقية من مجرى دجلة القديم أيضاً ، وإن مكانها الأصلي لا يزال يعرف باسم « الحظيرة » فيقع جنوبي بساتين بلد الحالية عند التل المعروف باسم « تل أبي كنزيز » (راجع اللوحة رقم ٢) . وهناك أنهر قديمة مهجورة تتفرع من نهر بـلد جنوب شرقي بساتين بلد الحالية كانت تروي المنطقة التي تقع فيها «الحظيرة» وهذه الأنهر لا تزال محافظة على أسمائها الاصلية وهي تسمى « أنهر الحظيرة » . وقد جاء في معجم ياقوت ان «الحظيرة» قرية كبيرة من اعمال بغداد من جهة تكريت من ناحية دجيل ينسج فيها الثياب الكرباس الصفيق ويحملها التجار الى البلاد ، كما جاء في المراصد انها « قرية كبيرة من اعمال بغداد من دجيل قرب حربى ينسب اليها الثياب القطن الخام التي تحمل الى البلاد » .

ويلاحظ ان لي سترانج عين موضع «الحظيرة» على الجانب الايمن لمجرى دجلة القديم كما انه عين موضع بلد في ذلك الجانب أيضاً على حين انهما يقعان على الجانب الايسر من المجرى المذكور ، ولعله توصل الى ذلك مستنداً الى قول

---

(١) راجع كتاب « مسالك الأبصار في ممالك الأمصار » لابن فضل الله العمري ، الجزء الأول ، طبعة دار الكتب المصرية ، ص ٢٥٨ ـ ٢٦١ .

ابن عبد الحق من ان الحظيرة بالقرب من حربى الواقعة على الجانب الايمن لمجرى دجلة القديم وان بلد بالقرب من الحظيرة وحربى . ويغلب على الظن ان بلد كانت في ذلك الوقت ضاحية من ضواحي الحظيرة حيث لا تزال بساتينها تحاذي ضفة مجرى الشطيطة اليسرى في شمال اطلال الحظيرة مباشرة ، وقد ذكرها ياقوت في معجمه فقال «وبلد أيضاً بليدة من نواحي دجيل قرب الحظيرة وحربى من اعمال بغداد » . وقريب من هذا ما ذكره ابن عبد الحق في المراصد قائلاً ان بلد « قرية معروفة من قرى دجيل قرب الحظيرة وحربى » . وهناك مكان آخر في شمالي الموصل يعرف بأسم بلد أيضاً ذكره ياقوت فى المشترك قال : « بلد مدينة قديمة فوق الموصل على دجلة بينهما سبعة فراسخ ويقال لها بلط أيضاً ينسب اليهـــا أبو منصور محمد وأبو عبد الله أحمد ابنا الحسن بن سهل البلدي يعرفان بأبني الصباح» ، إلا أنه ذكر في معجمه عن بلد الموصل ما نصه : «وقال عبد الـكريم بن طاووس بها قبر أبي جعفر محمد بن علي الهادي باتفاق » . ولما كان القبر المذكور في بلد دجيل فيعتقد ان ذلك كان حاشية ملحقة بالاصل ثم دخل الى المتن لأن عبد الـكريم بن طاووس من الذين لم يدركوا ياقوتاً الحموي .

وكان يلي الحظيرة من الجنوب مدينتا « باحمشا » و «عكبرا »، فتقع الاولى على بعد أربعة فراسخ (١٨ كيلومتراً) من الحظيرة والثانية على مسافة ثلاثة فراسخ (١٥ كيلومتر) من باحمشا . أما باحمشا فقد ذكر ابن خرداذبة انها تقع على بعد أثنى عشر فرسخاً (حوالي ٧٠ كيلومتراً) من شمالي بغداد ، وذلك يتفق وموضع « تلول الحير » الواقعة على الضفة اليمنى من مجرى دجلة القديم « الشطيطة » ، ويوجد في الوقت الحاضر نهر قديم باسم « نهر ابي حمشة » ينتهي عند « تلول الحير » المذكورة . ومن الادلة التي تؤيد ان مدينة « باحمشا » كانت في موضع « تلول الحير » ان هذه التلول تقع على بعد أربعة عشر كيلومتراً من شمالي اطلال « عكبرا » وهذا يتفق تماماً مع المسافة التي أشار اليها ابن خرداذبة

الذي قال ان المسافة بين عكبرا وباهمشا تبلغ ثلاثة فراسخ أي حوالي أربعة عشر كيلومتراً . وقد اطلق ياقوت وابن عبد الحق على هذه المدينة اسم « باهمشا » فذكرا انها قرية بين « أوانا » و « الحظيرة » وعلى دجلة القديمة.

وكانت عكبرا من أهم مدن «طسوج برزجسابور» فما زالت أطلالها تعرف باسمها الاصلي « عكبرا » وهي تمتد على محاذاة الضفة الشرقية من مجرى دجلة القديم « الشطيطة » مسافة حوالي خمسة كيلومترات (راجع اللوحة رقم ٣) . وقد ذكر ياقوت ان عكبرا بلدة من نواحي دجيل بينها وبين بغداد عشرة فراسخ ، إلا أن ابن عبد الحق صحح ذلك فقال ان « عكبرا كانت من الجانب الشرقي على شاطيء دجلة فلما استحالت الدجلة الى جهة الشرق صارت دجلة تحتها تسمى الشطيطة واوانا تقابلها من غربي الشطيطة وخربت وانتقل أهلها إلى أوانا وغيرها وصار ما في شرقيها الى دجلة من عمل دجيل ويسمى الآن (سنة ٧٣٩ هـ) المستنصري لان الامام المستنصر استخرج له نهراً يسقيه من دجيل » . وكانت عكبرا مجمعاً للخلفاء ومأوى لأهل الأنس والقصف فكان يقصدها الناس من بغداد وقد اصبحت بعد انتقال العاصمة الى سامراء من المدن الرئيسية على طريق البريد العام بين بغداد وسامراء . وجاء ذكر عكبرا فيما انشده البحتري من قصيدة :

ولما نزلنا عكبرا ولم يكن نبيذ ولا كانت حلالاً لنا الخمر
دعونا لها بشرا وربّ عظيمةٍ دعونا لها بشرا فاصرخنا بشر

وقد أشار ابن عبد الحق في المراصد الى نهر متصل بعكبرا اسمه « نهر زاور » كما أشار الى قرية باسم « قرية زاور » أيضاً كانت تقع عند ذلك النهر .

وكانت عكبرا تدعى في عهد الفرس « بوزورك شابور » واسمها بالسريانية عكبرا ومعناها الفأر ، فقال حمزة الاصبهاني « بزرجسابور معرّب عن وزرك شافور وهي المسماة بالسريانية عكبرا »[1].

---

(١) راجع معجم ياقوت الحموي مادة « بزرجسابور »

ومن القرى المهمة التي كانت على ضفة نهر دجلة الشرقية ما بين عكبرا وبغداد « بصرى » و « البردان » و « بزوغي » . اما قرية « بصرى » فقد حافظت على اسمها القديم وهي تقع في التل المسمى « تل البصيرة » الكائن على بعد زهاء خمسة كيلومترات من جنوبي شرقي عكبرا على الضفة اليسرى من مجرى دجلة القديم « الشطيطة » . وقد ذكر ياقوت في معجمه ان قرية « بصرى » من قرى بغداد قرب عكبرا واياها عنى ابن الحجاج بقوله :ـ

ولعمر الشباب ما كان عني أول الراحلين من احبابي
ان تولي الصبي عني فاني قد تعزيت بعده بالتصابي
أيظن الشباب اني مخل بعده بالسماع أو بالشراب
ش لي حانتي اوانا وبصرى للدنان التي أرى والخوابي
ان تلك الظروف أمست خدوراً لنبات الكروم والاعناب

واليها ينسب ابو الحسن محمد بن محمد بن احمد بن خلف البصري الشاعر قرأ الكلام على المرتضى الموسوي .

وقريب من هذا قول ابن عبدالحق مؤيداً ان « بصرى من قرى بغداد قرب عكبرا ذكرها ابن الحجاج في شعره مع اوانا » .

وكانت « البردان » مدينة عامرة على الجانب الشرقي من مجرى دجلة وهي تقع عند مصب نهر الخالص القديم في دجلة في الجهة الجنوبية منه[1] ، فذكر ابن خرداذبة انها تقع على طريق البريد العام بين بغداد وسامراء على بعد أربعة فراسخ (حوالي ١٨ كيلومتراً) من شمالي بغداد ، إلا أن أبا الفداء ذكر انها تبعد خمسة فراسخ عن بغداد ، اما ياقوت فقال ان المسافة بينها وبين بغداد سبعة فراسخ ، ولعل قول ابن خرداذبة أصح من تقدير ابي الفداء وياقوت لانه

---

(١) حول نهر الخالص القديم راجع البحث الخاص بأنهر مدينة بغداد الشرقية في الفصل التاسع التالي .

يرجع الى ما قبل عصر ياقوت وأبي الفداء بعدة قرون ولا سيما وان قدامة الذي كان معاصراً لابن خرداذبة يؤيد تقدير ابن خرداذبة ، وفضلاً عن ذلك ان ابن عبدالحق يصحح ياقوت قائلا ان الموضع الذي أشار اليه ياقوت غير معروف. أما موضع البردان فاننا نميل الى الاعتقاد انه كان في مكان التل المسمى « ايشان بدران »، وهو التل الواقع على مسافة ثلاثة كيلومترات ونصف جنوبي شرقي ناحية الداودية الحالية ، ولعل البردان حرّفت فأصبحت بدران بعد ان تناقلتها الألسن خلال الألف سنة الاخيرة . وأوضح دليل على ذلك ان « ايشان بدران » هذا يقع على نفس المسافة التي ذكرها ابن خرداذبة بالنسبة الى مدينة بغداد ، اذ يبعد ١٨ كيلومتراً من شمالي مدينة بغداد . ويلاحظ أن الطريق القديم بين بغداد و« البردان » كان يسير في نفس الاتجاه الذي يسير فيه الطريق العام الحالي بين مدينة بغداد والجديدة، ومع ان موضع « البردان » مازال شرقي مجرى دجلة، كما كان عليه الحال قديماً ، إلا ان هناك مايدل على ان مدينة « البردان » كانت تقع على ضفة النهر تماماً ، على حين ان « ايشان بدران » الحالي يقع على مسافة حوالي ستة كيلومترات من ضفة النهر . ونستخلص من ذلك ان نهر دجلة كان يجري في هذه المنطقة في غير مجراه الحالي (راجع اللوحة رقم ٦) .

وكانت هناك محلة في مدينة بغداد الشرقية تسمى « قنطرة البردان » لانها كانت تقع على الطريق المؤدية الى « البردان » ، كما أن هناك موضعاً في هذه المحلة كان يسمى « باب البردان » للسبب نفسه . وقد ذكر ياقوت في هذا الصدد أن « قنطرة البردان » محلة ببغداد بناها رجل يقال له السري بن الحطم صاحب الحطمية قرية قرب بغداد وقد نسب الى هذه المحلة جماعة وافرة من المحدثين منهم الحكم بن موسى القنطري والعباس بن الحسين القنطري وغيرهما من المنسوبين الى هذه المحلة . وقال الحموي أن البردان من قرى بغداد على سبعة فراسخ منها قرب صريفين وهي من نواحي دجيل والبردة بالفارسية الرقيق المجلوب في أول

اخراجه من بلاد الكفر ولعل هذه القرية كانت منزل الرقيق فسميت بذلك ، إلا أن ابن عبدالحق صحح قول ياقوت هذا فيما يختص بموقع البردان مؤيداً بأنها قرية فوق بغداد من نواحي الخالص ، مضيفاً الى ذلك ان قول ياقوت من انها من نواحي دجيل على سبعة فراسخ من بغداد قرب صريفين فان ذلك غير معروف، اما الواقع فيؤيد الرأي الاخير .

أما قرية « بزوغي » فموضعها غير معلوم ، إلا أن ياقوت ذكر بأنها قرب « المزرفة » وإنها تقع على مسافة فرسخين من بغداد ، وقد ذكرها ابن سرابيون أيضاً فعين موضعها على نهر دجلة قرب « البردان » و « المزرفة » . ونستخلص من ذلك أنها كانت ما بين بغداد و « البردان » مقابل « المزرفة » الواقعة على الجهة الغربية للنهر[1].

وكان طريق البريد العام بين بغداد وسامراء يسير على الجانب الشرقي من مجرى دجلة القديم ضمن « طسوج بزرجسابور » ماراً بـ « البردان » الواقعة على مسافة أربعة فراسخ من بغداد شمالاً ، وبمكبرا الكائنة على بعد خمسة فراسخ من « البردان » ، و بـ « باحمشا » الواقعة على مسافة ثلاثة فراسخ من « عكبرا » ، و بـ « الحظيرة » التي تبعد ثلاثة فراسخ عن « باحمشا » ، و بـ « العلث » الكائنة على مسافة حوالي فرسخ ونصف فرسخ عن « الحظيرة » ، و بـ « القادسية » الواقعة على بعد زهاء فرسخين ونصف فرسخ من «العلث»، وأخيراً ينتهي الى سر من رأى بعد مسافة ثلاثة فراسخ من القادسية . وبذلك يكون مجموع مسافة الطريق بين بغداد وسامراء حوالي ٢٢ فرسخاً . ويظهر مما كتبه اليعقوبي أن العمران كان متصلاً بين بغداد وسامراء على الطريق المذكور فقال ما نصه : « ولم تخرب بغداد ولا نقصت أسواقها لأنهم لم يجدوا

---

(١) حول « المزرفة » راجع البحث التالي الخاص بـ « طسوج مسكن » في هذا الفصل.

فيها عوضاً ولأنه اتصلت العمارة والمنازل بين بغداد وسر من رأى في البر والبحر أعني في دجلة وفي جانبي دجلة » .

بحثنا فيما تقدم عن «طسوج بزرجسابور» ومدنه المهمة التي كانت على الضفة الشرقية من مجرى دجلة القديم بين سامراء وبغداد ، وننتقل الآن الى البحث عن « طسوج مسكن » ومدنه ، وهو الطسوج الذي كان على الضفة المقابلة من النهر ، فيبدأ من جوار مدينة « حربى » شمالاً وينتهي الى قرب التاجي جنوباً . ومما يدل على أهمية هذا الطسوج أن جبايته في ايام المعتصم (٢١٨ـ ٢٢٧ هـ = ٨٣٣ — ٨٤٢ م) بلغت ثلاثة آلاف كر حنطة والف كر شعير و ٢٥٠٫٠٠٠ درهم . وكانت اراضي هذا الطسوج تسقى من الانهر المتفرعة من الجانب الغربي لنهر دجلة بجوار العلث وكان من جملة هذه الانهر نهردجيل الذي يعد أهمها من حيث سعته وطول امتداده .

أما المدن والقرى المهمة التي كانت ضمن الطسوج المذكور فأولها من الشمال مدينة « حربى[1] » ، وهى المدينة التي ما زالت خرائبها الواسعة تشاهد على مسافة حوالي خمسة كيلومترات من غربي مدينة بلد الحالية ، وقد حافظت على اسمها القديم حتى اليوم فهي لا تزال تسمى اطلالها « خرائب حربى » . وتمتد اطلال المدينة هذه على طول الضفة اليمنى لمجرى دجلة القديم (الشطيطة الآن) محاذية الضفة اليسرى لمجرى دجيل (راجع اللوحة رقم ٢) [2] . وقد ذكر ياقوت في معجمه (مادة حربى) أن « حربى بليدة في أقصى دجيل بين بغداد

---

(١) جاء ذكر حربى في كتاب « مفصل جغرافية العراق » للعلامة العميد طه الهاشمى (ص ٥٢٣) باضافة أداة التعريف (الحربي)عليها ، الا أننا لم نعثر عليها بهذه الصيغة في الكتب العربية القديمة .

(٢) لاحظنا أن دائرة الآثار العراقية ذكرت في نشرتها عن جسر حربي أن أطلال مدينة حربي تقع على الضفة اليسرى من الشطيطة ، وقد ثبت عندنا خلاف ذلك .

وتكريت مقابل الحظيرة تنسج فيها الثياب القطنية الغليظة وتحمل الى سائر البلاد وقد نسب اليها قوم من أهل العلم والنباهة » . ويظهر أن مدينة حربى كانت قديمة وكانت معروفة بنفس الاسم في صدر الاسلام ، لأن الطبري أشار الى أن شبيباً عندما خرج على الحجاج عبر نهر دجلة بالقرب من حربى .

وكانت تلي حربى من الجنوب قصبة « اوانا » التي كانت تعد من أهم مدن « طسوج مسكن » ، أما اطلالها فتقع في اراضي الزهيري الحالية (مقاطعة ٢ رقم ٩ الدجيل ابو صخير) بالقرب من تل « كف الامام علي » جنوباً عند الموضع المسمى تل « شنيث » أو تل « الصخر » ، ولا يزال يسمى موضع خرائبها « تلول وانه » ، كما أنه لا يزال يسمى سكان هذه المنطقة « وانيين » وان معظم هؤلاء الوانيين قد استوطنوا الكاظمية في الوقت الحاضر . وكانت « اوانا » على الضفة الغربية من مجرى دجلة مقابل « عكبرا » الواقعة على الجانب الشرقي، ولا يزال موضعها على الضفة الغربية من ذلك المجرى مقابل اطلال « عكبرا » . ويسمى المجرى في هذا الموضع اليوم «شطيطة الزهيري» نسبة الى اراضي الزهيري التي يقع فيها . ويظهر أن الاراضي المجاورة الى خرائب «اوانا» كانت تعرف باسم « اوانا » ، إذ كانت تقع فيها قرى كثيرة ومزارع واسعة ، والدليل على ذلك أن ابن عبدالحق يقول ان قرية « صريفون » الواقعة شمالي « اوانا » كانت تتصل بضياع « اوانا » . لذلك نميل الى الاعتقاد ان منطقة « اوانا » كانت تمتد على حافة النهر الغربية من قرب « كرة الزهيري » حتى نهاية التلول التي تمتد على حافة الشطيطة في شمالي « تل كف الامام علي » ومن ضمن ذلك « تل كف الامام علي » نفسه ، اما من جهة الغرب فكانت تمتد الى حد نهر دجيل . ومما يؤيد ذلك ان هناك موضعاً بالقرب من دجيل لا يزال يسمى « وانه » ، ويقع هذا الموضع على بعد حوالي ٣٠٠ متر من شمالي مخفر المعوّج بين الطريق العام وسكة حديد بغداد — سامراء ، وفي هذا الموضع آثار سور قديم وبقايا بناء من الآجر .

ويلاحظ أن لي سترانج ثبت موقع « اوانا » في الجهة الشرقية من الشطيطة على حين أن موقعها الحالي من الشطيطة لا يترك أي شك في كونها على الجانب الغربي ، وقد أيد المؤرخون العرب ذلك في كتاباتهم . قال ابن عبدالحق في مادة « اوانا » ما نصه : « اوانا بليدة من دجيل كثيرة البساتين والشجر بينها وبين بغداد عشرة فراسخ من فوقها تحاذي عكبرا كان بينهما الدجلة واستحالت عنهما . » ثم ذكر في مادة « الجويث » : « والبردان من الجانب الشرقي و اوانا من الغربي . » وأيد ذلك مرة اخرى في مادة « عكبرا » فقال : « كانت عكبرا من الجانب الشرقي على شاطىء دجلة فلما استحالت الدجلة الى جهة الشرق صارت دجلة تحتها تسمى الشطيطة و اوانا تقابلها من غربي الشطيطة . » كما أنه أيد ذلك أيضاً في مادة « صريفون » فقال انها « بقرب دجلة القديمة التي تسمى الشطيطة فوق اوانا تتصل بضياعها وعكبرا تقابل اوانا من جانب الشطيطة الآخر ونهر دجيل بعيد عنها . » وكان الطبري ، الذي دوّن تاريخه قبل ابن عبدالحق بأكثر من اربعة قرون ، قد أيد ذلك عرضاً ، فقال في أخبار قحطبة بن شبيب سنة ١٣٢هـ . « لما كان قحطبة يريد الكوفة دون أن يكون مسيره عن طريق جلولاء التي كان ابن هبيرة مخندقاً فيها قال لأصحابه هل تعلمون طريقاً يخرجنا الى الكوفة لا عمر بن هبيرة فقال له أحدهم نعم أنا أدلك فعبر به تامرا من روستقباذ ولزم الجادة حتى نزل بزرج سابور وأتى عكبرا فعبر دجلة الى اوانا . »

وقد ذكر فيليكس جونس الذي زار هذه المنطقة في سنة ١٨٥٠ م . أن قبر « كف الامام علي » كان قد اتخذه قطاع الطرق مكمناً يختفون عنده ، وقد حفروا بئراً في وسط الشطيطة المحاذية له للارتواء منها . وفي زمن الوالي علي باشا أسس مخفر للشرطة في « وانه » لحماية القوافل من التعرض لها في هذا المكان ، وفتح فرعاً من نهر دجيل لايصال المياه الى هذا المخفر من النهر المذكور ، إلا أن قلة المياه في النهر المذكور حالت دون امكان استمرار المخفر في هذا المكان طويلا.

ونرجح أن مكان هذا المخفر كان في موضع مخفر المعوّج المهجور (راجع اللوحة رقم ٦) . وقد ذكرت مس بيل التي زارت هذه المنطقة في سنة ١٩١١ م . في كتابها «امورات الى امورات» أن هناك على «تل وانه» قبر الامام محمد علي وقد وصفت القبر وقبته المثمنة العقادة وقد صورت القبة المذكورة في كتابها المذكور ، ولعل القبة التي وصفتها هي « قبة كف الامام علي » وقد تخربت الآن .

ومن أهم المواقع التاريخية في « طسوج مسكن » مدينتا « دجيل » و « مسكن » اللتان كانتا تقعان على نهر دجيل ، فبجوار هاتين المدينتين وقعت المعارك التاريخية المشهورة بين مصعب بن الزبير وعبدالملك بن مروان حوالي سنة ٧٢ه ، وفي هذه المعارك قتل مصعب وعيسى ابنه وابراهيم بن الاشتر ، وعلى الأرجح انهم دفنوا في هذه المنطقة نفسها . ومن بين المعارك التي دون المؤرخون العرب تفاصيلها « وقعة يوم دجيل » وهي الوقعة التي قتل فيها عيسى بن مصعب وابراهيم بن الاشتر ، ويظهر أن سبب تسمية هذه الوقعة « وقعة دجيل » يرجع الى احتمال وقوعها بالقرب من مدينة « دجيل » .

ولا بد من أن نشير في هذا الصدد نقطة تأريخية مهمة تتصل بالارتباك الواقع في تعيين تاريخ انشاء نهر دجيل ، وهو النهر الذي كان يبدأ من ضفة نهر دجلة اليمنى من شمالي العلث ، فيسير الى الجنوب الشرقي في اتجاه مجرى نهر دجيل الحالي مخترقاً « طسوج مسكن » حتى ينتهي الى جوار مدينة بغداد . فقد اعتبر المؤرخون كافة أن نهر دجيل يرجع الى عهد المستنصر (القرن السابع الهجري) مستندين بذلك الى الكتابة المنقوشة على جبهتي الجسر الذي أنشأه المستنصر على نهر دجيل قرب مدينة « حربى » وهي الكتابة التي تشير الى أن الجسر المذكور انشىء في عهد المستنصر سنة ٦٣٠ه (١٢٣١م) ، وقد أيدت دائرة الآثار العراقية هذه النظرية مستندة الى المرجع نفسه[1]. إلا ان

---

(١) راجع نشرة دائرة الآثار العراقية عن جسر حربي المطبوعة في مطبعة الحكومة سنة ١٩٣٥ (ص ٦) .

قد ثبت عندنا من الدلائل التأريخية ومن آثار الأنهر القديمة نفسها ان مشروع نهر دجيل يرجع الى صدر الاسلام إن لم يكن الى ما قبل ذلك ، أما المستنصر فقد اقتصر عمله على تحويل صدر نهر دجيل الى الشمال وفتح فروع جديدة من جانبه الأيسر لأرواء المنطقة التي انقطعت عنها المياه بعد تحول مجرى دجلة الى جهة الشرق ، وهي المنطقة التي كانت تقع فيها مدن « بلد » و« الحظيرة » و « العلث » و« عكبرا » وغيرها ، وقد وسع المستنصر نهر دجيل بحيث اقتضى إنشاء جسر عبور عليه فأقام ذلك الجسر بالقرب من مدينة « حربى » وذلك نظراً لأهمية موقع هذه المدينة آنذاك .

ومما يؤيد أن نهر دجيل كان موجوداً قبل عهد المستنصر أنه علاوة على ثبوت وجوده في عهد عبد الملك بن مروان أن هناك دلائل مثبتة في كتابات المؤرخين العرب على أنه كان موجوداً في العهد العباسي ايضاً . فذكر الطبري أن المعتضد أمر بكريه « والاستقصاء عليه وقلع صخر في فوهته كان يمنع الماء فجبي لذلك من ارباب الضياع والاقطاعات اربعة آلاف دينار وكسر فيما ذكر وأنفق عليه وولى ذلك كاتب زيرك وخادم من خدم المعتضد . » وكان ذلك في شهر رجب من سنة ٢٨٣هـ[١] . وقد أيد الطبري ايضاً أن فم نهر دجيل كان يقع جنوبي سامراء فقال في ذكر حوادث سنة ٢٥٢هـ . « ان سعيد بن صالح تسلم المستعين من ابن طولون في القاطول بعد ما صار به ابن طولون اليها ثم اختلف في امرهما فقال بعضهم قتله سعيد بالقاطول... وقد قال بعضهم بل ادخله سعيد وابن طولون سامراء ثم صار به سعيد الى منزل له فعذبه حتى مات . وقيل بل ركب معه في زورق ومعه عدة حتى حاذى به فم دجيل وشد في رجله حجراً وألقاه في الماء[٢] . » وقد ورد ذكر نهر دجيل في اخبار سنة ١٣٢هـ . وهي السنة الاولى من حكم العباسيين ، فقال الطبري ان قحطبة امر اصحابه

---

(١) الطبري (٣ : ٢١٥٣) .

(٢) الطبري (٣ : ١٦٧١) .

أن يعبروا دجلة فعبروا وساروا بين دجلة ودجيل ومن ثم ذهبوا الى الانبار[١]. »

أما مدينة « دجيل » فكانت على نهر دجيل والأرجح انها كانت في موضع قرية سميكة الحالية ، وهي القرية التي سميت مؤخراً « الدجيل » ايضاً . وكان بالقرب من مدينة « دجيل » دير يسمى « دير الجاثليق » ، وقد ورد ذكر هذا الدير في حوادث مصعب بن الزبير وعبدالملك بن مروان ، فذكر ياقوت ان « دير الجاثليق دير قديم البناء رحب الفناء من طسوج مسكن قرب بغداد في غربي دجلة في عرض حربى وهو في رأس الحد بين السواد وأرض تكريت ... وعنده كانت الحرب بين عبدالملك بن مروان ومصعب بن الزبير وكان الجيشان على شاطىء دجلة وإلى ذلك الموضع في العرض وعنده قتل مصعب بن الزبير... » فقال عبدالله بن قيس الرقيات وهو يرثي مصعباً :

لقد أورث المصرين خزياً وذلة ... قتيل بدير الجاثليق مقيم
فما قاتلت في الله بكر بن وائل ... ولا صدقت عند اللقاء تميم

وأنشد محمد ابن ابي امية في دير الجاثليق قوله :

تذكرت دير الجاثليق وفتيبة ... بهم تم لي فيه السرور واسعفا
بهم طابت الدنيا وأدركني المنى ... وسالمني صرف الزمان واتحفا
ألا رب يوم قد نعمت بظله ... ابادر من لذات عيشي ما صفا

أما موضع « دير الجاثليق » فنميل الى الاعتقاد انه كان في موضع التل الاثري المسمى « تل الدير » ، وهو التل الواقع على بعد حوالي ستة كيلومترات من جنوب غربي قرية سميكة «الدجيل» الحالية (راجع اللوحة ٦) . وتتكون اطلال هذا الدير من بناء مربع من الآجر والجص تتوسطه ساحة تعلو سطح الارض المجاورة حوالي ثلاثة امتار ، ويعلو البناء الساحة على طول

---

(١) الطبري (٣ : ١٢) . راجع البحث التالي الخاص بنهر دجيل في الفصلين الثالث والحادي عشر .

الاضلاع الاربع من المتر الواحد الى المترين . أما مساحة البناء ومعها الساحة فتبلغ حوالي خمسة آلاف متر مربع[١]. ومما أورده البلاذري بصدد موضع « دير الجاثليق » قوله : « وانشدني محمد بن الاعرابي الراوية في بيعة عبدالملك لرجل من بلقين :

بدير الجاثليق على دجيل ... عقدنا بيعة الملك الهمام
عقدنا بيعة لا إثم فيها ... سيحوي فخرها اهل الشآم[٢] ».

---

(١) يسمي الأهلون هذا الدير « دير زبارج » نسبة الى نهر زبارج الذي يتفرع من ضفة نهر دجيل اليمنى وينتهي الى قرب الدير المذكور ، وذلك لتمييزه عن دير آخر يقع على مسافة ١٩ كيلومتراً جنوباً ويسمى « تل الدير » أيضاً ، وقد أطلق الأهلون على الأخير اسم « دير الهور » لتمييزه عن الدير الشمالي . ومع أن أطلال هذا الدير تتكون من بناء مربع تتوسطه ساحة منبسطة على نمط بناء دير « زبارج » الا أنه أوسع وأعلى من « دير زبارج » اذ يبلغ طول ضلعه حوالي ١٥٠ متراً . ويرتفع البناء عن الأرض المجاورة زهاء ثمانية امتار ، كما أن الساحة التي تتوسط البناء تعلو سطح الأرض المجاورة حوالي خمسة امتار . وتوجد آثار بناء وسط الساحة يحتمل أنها اطلال مقبرة الدير . ونميل الى الاعتقاد بأن « دير الهور » هذا مكان « دير اشموني » الذي ذكره ياقوت فقال فيه ما نصه : « واشموني امرأة بني الدير على اسمها ودفنت فيه وهو بقطربل وكان من منتزهات بغداد وفيه يقول الدواني :

اشرب على قرع النواقيس ... في دير اشموني بتفليس

و عيد اشموني ببغداد معروف وهو في اليوم الثالث من تشرين الأول » .

واليك ما أورده الشابشتي بصدده في كتابه « الديارات » قال : « واشموني امرأة بني الدير على اسمها ودفنت فيه وهو بقطربل غربي دجلة . وعيده اليوم الثالث من تشرين الأول وهو من الأيام العظيمة ببغداد ، يجتمع أهلها اليه كاجتماعهم الى بعض أعيادهم ، ولا يبقى أحد من التطرب واللعب الا خرج اليه ... » . (راجع مقال الأستاذ كوركيس عواد « اشموني ـ كنائسها وديراتها في بلاد الشرق » المنشور في مجلة المشرق عدد تشرين الثاني ١٩٤٦ ص ٥١٦ ـــ ٥٢٤) . ولما كانت منطقة قطربل تقع بجوار « دير الهور » المذكور فيمكن أن يقال أن وصف ياقوت والشابشتي ينطبق عليه .

(٢) « أنساب الأشراف » الجزء الخامس (طبعة القدس) ص ٣٥٥ .

أما قرية «مسكن» فلا تزال اطلالها محافظة على اسمها القديم حتى اليوم وتبلغ مساحتها حوالي نصف مليون متر مربع فتسمى «خرائب مسكين» ، وهي كائنة على الضفة الغربية من نهر دجيل الحالي (راجع اللوحة رقم ٦) ، ويبعد موضعها حوالي ثلاثة كيلومترات من جنوبي قرية سميكة (الدجيل الحالية) . ولعل قبة « إمام منصور » الواقعة بالقرب من « تل مسكين » الى جهة الغرب تضم قبر مصعب بن الزبير الذي قيل أنه دفن هناك . ويقع قبر ابراهيم بن الاشتر على مسافة حوالي ستة كيلومترات من جنوبي « تل مسكين » و « إمام منصور » ، ولا تزال تسمى قبته « قبة السيد ابراهيم » وقد نقش على حجر فوق باب القبة ما يلي :

« هذا قبر المرحوم السيد ابراهيم ابن مالك الاجدر النخعي رسول علمدار الله صلى الله عليه وسلم ١٠٨٩ » .

ويقول العارفون من أهل سميكة أن قبر مصعب في نفس قبة السيد ابراهيم المذكورة وليس هناك ما يثبت ذلك أو ينفيه .

وقد ذكر ياقوت أن مسكن « موضع قريب من اوانا على نهر دجيل عند دير الجاثليق به كانت الوقعة بين عبدالملك بن مروان ومصعب بن الزبير في سنة ٧٢هـ فقتل مصعب وقبره هناك معروف . » أما ابن عبدالحق فقد قال ما نصه : « مسكن اسم للطسوج الذي منه اوانا من اعمال دجيل والموضع الذي به قبر مصعب على جانب دجيل به الآن قرية ودير الجاثليق قريب منه » .

ويحسن بنا أن ننقل هنا ما أورده البلاذري بصدد الوقعة التي كانت بين مصعب وعبدالملك في كتاب « أنساب الاشراف » قال : « فلما صح عند مصعب بن الزبير وصول عبدالملك بريده بعث الى ابن الاشتر الذي كان آنذاك في الموصل فأقدمه عليه فجعله على مقدمته وسار حتى أتى دمما وهي من عمل الانبار ثم قطع منها حتى نزل بقرب اوانا وهناك دجيل ودير الجاثليق وباجميرا فعسكره وموضع

وقعته بين هذه المواضع »، الى أن قال : « قالوا وبويع عبدالملك بدير الجاثليق ودفنت جثة مصعب هنـاك فقبره معروف بمسكن بقرب اوانا ويعرف موضع عسكره ووقعته بخربة مصعب وبصحراء مصعب وزعموا أنهـا لا تنبت شيئاً . وبعث عبدالملك برأس مصعب الى الكوفة أو حمله معه ثم بعث به الى عبدالعزيز بمصر فلما رآه وقد حذى السيف انفه قال رحمك الله أما والله لقد كنت من أحسنهم خلقـاً واشـدهم بأساً وأسخـاهم نفساً ثم رد رأسه الى الشـام فنصب بدمشق[1]. » وقد أشار البلاذري عند نقله اخبار عبدالملك ومصعب الى قرية تسمى « الاخنونية » وهي بين « مسكن » و « تكريت »، فقال ما نصه : « فسار عبدالملك حتى نزل الاخنونية وهى بين مسكن وتكريت ونزل مصعب دير الجاثليق وهو بمسكن وبين العسكرين ثلاثة فراسخ ويقال فرسخان وخندق مصعب خندقاً على عسكره وعسكره اليوم يعرف بخربة مصعب[2]. » وذكر ياقوت أن « الاخنونية موضع من اعمال بغداد قيل هي حربى »، وقد ذكرها ابن عبدالحق باسم الاخنونة وقال انها موضع من اعمال بغداد قيل هو حربى .

ومن القرى التي حافظت اطلالها على اسمائها حتى اليوم في منطقة دجيل عدا « مسكن » و « دجيل »، « المنـارية » و « جمـد »، و « جويث »، و « الاجة ». أما « المنارية » فقد ذكرها ابن الاثير في حوادث سنة ٥٢٦هـ وعدها من قرى دجيل[3]، وهي تقع في التـلول المسماة اليوم « تلول مناري » الـكائنة على مسافة كيلومترين ونصف كيلومتر من جنوب غربي قرية سميكة الحالية وعلى بعد حوالي ثلاثة كيلومترات من غربي « تل مسكين » (قرية مسكن)، كما انها تقع شرقي « تل الدير » (دير الجاثليق) تماماً على مسافة ثلاثة كيلومترات ونصف كيلومتر منه . وهناك نهر يسمى « نهر المناري » يتفرع من الضفة

---

(١) الجزء الخامس من كتاب « أنساب الأشراف » ص ٣٥٠ — ٣٥١
(٢) « « « « ص ٣٣٧ — ٣٣٨
(٣) راجع الجزء العاشر ص ٤٧٧ .

اليمنى من نهر دجيل الحالي في نقطة تقع على مسافة حوالي الكيلومتر الواحد من شمالي ناحية سميكة الحالية فيمتد في الاتجاه الجنوبي الغربي نحو « تلول المناري »، ثم يواصل سيره تاركاً « تلول المناري » على يمينه فيمتد الى ناحية الجزيرة الواقعة بين دجلة والفرات .

أما قرية « جمد » فقد ذكرها ياقوت قائلاً انها « قرية كبيرة كثيرة البساتين والشجر والمياه من اعمال بغداد من ناحية دجيل قرب اوانا ينسب اليها ابو عبدالله محمد بن احمد بن عبدالله الجمدي مات سنة ٥٨٤ . » كما ذكرها ابن عبدالحق في المراصد فقال انها « قرية كبيرة بدجيل من اعمال بغداد . » وموضع هذه القرية على النهر المسمى اليوم « نهر جمد » وهو النهر الذي يتفرع من الضفة الشرقية لنهر دجيل بجوار قرية سميكة الحالية فيسير شرقاً بين مجرى دجلة القديم ونهر دجيل .

وكانت قرية « جويث » من القرى المهمة في هذه المنطقة ، وهي لاتزال محافظة على اسمها القديم حتى اليوم فتسمى اراضيها الواقعة شرقي « تل مسكين » (قرية مسكن) مابين الضفة الغربية لمجرى دجلة القديم ومجرى دجيل « اراضي جويث ». وقد ذكر ياقوت قرية جويث أيضاً فقال انها « موضع بين بغداد واوانا قرب البردان » ، إلا ان ابن عبد الحق نوه بخطأ هذا الوصف فتساءل كيف يمكن ان تكون الجويث قرب البردان في حين ان « البردان » تقع في الجانب الشرقي من دجلة و« اوانا » غربيها . ومما انشده جحظة في الجويث قوله :ـ

ايام تحوى حيث كنت لعاشق كفاً منيرة
ما بين حانات الجويث الى المطيرة فالحظيرة

اما « الاجمه » فلم يذكرها أحد غير ابن سرابيون وقد عدّها من المدن والقرى التي كانت على ضفتي نهر دجلة فعيّن موضعها بين « القادسية » و « العلث » إذ قال ان نهر دجلة يمر الى « القادسية » و « الاجمة » و « العلث » الخ ... ثم ذكرها في مكان آخر عند وصفه مجرى النهروان ومدنه فعيّن موضعها على ضفة

نهر القاطول الاعلى السكسروي مابين قرية « المحمدية » و « الشاذروان »(١).
اما موضع «الاجمة » بالنسبة الى الآثار الحالية فيتعذر تعيينة بصورة مضبوطة على ان هناك نهراً قديماً يسمى نهر «الجمة» يتفرع من الضفة الشرقية لنهر دجيل في نقطة تقع جنوبي بساتين سميكة الحالية مباشرة ، ولا بد ان قرية «الاجمة» كانت في موضع ما على هذا النهر ، ويلاحظ ان مجرى دجلة القديم الذي يسير الى جانب النهر المذكور يسمى اليوم « شطيطة الجمة » نسبة الى « الاجمة ».

ومن قرى دجيل التي جاء ذكرها في معجم ياقوت والتي يتعذر تعيين مواضعها قرية « روبا » التي ذكر ياقوت انها من قرى دجيل بغداد ونسب اليها ابا حامد طيب الروبائي الحربي ، وقرية « جبابين » التي قال انها « من قرى دجيل من اعمال بغداد وينسب اليها أحمد بن أبي غالب الجبائي » ، و « دور بني اوقر » التي ذكر انها « من مدن دجيل تقع على بعد خمسة فراسخ من بغداد وكان الوزير عون الدين يحيى بن هبيرة بنى فيها جامعاً ومنارة »(٢) .

وكان يحادد « طسوج مسكن » من الجنوب « طسوج قطربل » الذي يمتد جنوباً على محاذاة الضفة الغربية من دجلة حتى يتصل بمدينة بغداد الغربية .ومن أهم القرى التي كانت ضمن الطسوج المذكور « المزرفة » الواقعة على الجانب الغربي من مجرى دجلة ، وهي القرية التي مازالت محافظة على اسمها القديم حتى اليوم ، فتسمى المنطقة التي تقع فيها القرية « اراضي المزرفة » ، وهذه تقع على مسافة ٢٥ كيلومتراً من شمالي بغداد عن طريق النهر وعلى مسافة حوالي ستة كيلومترات من شمالي شرقي محطة التاجي الحالية . وقد ذكر ياقوت « قرية المزرفة »وقال عنها انها «قرية كبيرة فوق بغداد على دجلة بينها وبين بغداد ثلاثة فراسخ (١٥ كيلومتراً) واليها ينسب الرمان المزرفي كان فيها قديماً فاما اليوم

---

(١) راجع ماتقدم في صفحة ١٥٦
(٢) راجع ماتقدم في صفحة ٥٩

فليس فيها بستان البتة ولا رمان ولا غيره وهي قريبة من قطربل ... ينسب اليها أبو الهيثم خالد بن ابي يزيد وقيل انه يزيد المزرفي » . ويلاحظ ان لي سترانج عين موقع المزرفة في الجهة الشرقية من دجلة على حين أن موقعها الحالي من نهر دجلة لايترك أي شك في أنها كانت على الجهة الغربية ولا سيما بعد أن أيد ياقوت وقوعها في «طسوج قطربل» ، وهو الطسوج الذي كان يقع في الجانب الغربي .

١٥ ـ ملاحظات اجمالية :

يتضح مما تقدم أن النهروان بلغ ذروة ازدهاره في العهد الساساني وفي أوائل العهد العباسي ، فكان يتألف صدره الرئيسي من مدخلين ـ المدخل الصيفي عند القائم (مجرى القائم) ـ والمدخل الشتوي عند الصنم أمام القادسية (مجرى الصنم) ـ وبعد أن يلتقي المجريان يكونان نهراً واسعاً يمتد الى قرب الكوت قاطعاً مسافة ثلثمائة كيلومتر تقريباً . وكان علاوة على مجرى النهروان الرئيسي مجرى القاطول الأعلى الكسروي الذي يبدأ عند الدور ويلتقي بمجرى النهروان بالقرب من مجرى العظيم فيروي أراضي « طسوج بزرجسابور » الواقعة على الضفة الشرقية لنهر دجلة الذي كان يسير آنذاك في مجراه الغربي . وكان السدان على نهري ديالى والعظيم في جبل حمرين يحولان مياه هذين النهرين من مجريهما الاصليين فيفسحان للنهروان مجال السير في طريقه الى الكوت فيجري في هذه المسافة الطويلة دون حائل أو عائق، كما كان سد نمرود يحول مياه دجلة الى المجرى الغربي المرتفع فيرفع مناسيب مياه النهر امام القائم والدور ويضمن بذلك دخول المياه الى النهروان والقاطول الاعلى المكسروي بمناسيب عالية في موسم الصيهود . هذا مايتعلق بالجانب الشرقي من دجلة ، أما مايتعلق بالجهة الغربية فكان نهر دجيل يتفرع من ضفة دجلة الغربية في نقطة تقع على مسافة قليلة من شمالي موضع سد نمرود فيمتد هو وفروعه في الجزيرة الواقعة بين دجلة والفرات الى أن يصل قرب مدينة بغداد فيروي أراضي طسوجي «مسكن» و « قطربل » .

وهكذا كان معظم أراضي الدلتا الزراعية الخصبة يروى سيحاً من النهرين ، النهروان ودجيل ، وقد استمرت هذه الحالة في العهد العباسي الزاهر حتى انهار سد ديالى حوالي أواخر القرن الثالث الهجري ، ثم عقبه سد العظيم فانهار حوالي القرن السادس الهجري ، وأخيراً وقعت الضربه القاضية بتحول مجرى دجلة حوالي أواخر القرن السادس الهجري من مجراه الغربي الذي يسير بين القادسية وبغـــداد الى المجرى الشرقي الحالي فـكانت بها نهاية حياة النهروان الذي بقي مقبوراً حتى يومنا هذا .